المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

مجلة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

العدد الخامس
المحرم ١٤١٢هـ
يوليو ١٩٩١م

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

مجلة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مجلة علمية محكمة

العدد الخامس
المحرم ١٤١٢هـ
يوليو ١٩٩١م

مجلة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان المجلة : المملكة العربية السعودية
الرياض ١١٤١٥
ص.ب ١٨٠١١ ـ هاتف ٤٣٥٨٢٨٤

مراسلات التبادل والإهداء
عن طريق عمادة شؤون المكتبات
الرياض ١١٤٩١
ص.ب ٤١٢٤
هاتف : ٤٠٦٥٥٨٥

قواعد النشر

اولاً : يشترط في البحث الذي ينشر في المجلة ما يلي:

١ ـ أن يكون متسما بالأصالة وسلامة الاتجاه.

٢ ـ أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.

٣ ـ أن تتحقق له السلامة اللغوية.

٤ ـ الا يكون قد سبق نشره.

ثانيـــاً : تخضع البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم.

ثالثــاً : البحوث والدراسات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء اصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى الجامعة.

رابعــاً : ترتيب محتويات المجلة يتم وفقاً لأمور فنية.

خامساً : يعطى كل مشارك في المجلة خمس نسخ وثلاثين مستلة مما نشر له.

سادساً : توجه الرسائل إلى رئيس التحرير.

«إقبـــال والعـرب»

بقلـم الدكتور
سمير عبدالحميد إبراهيم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

اهتم العرب بالشاعر والمفكر محمد إقبال، فكتبوا عن حياته وعن مؤلفاته، كتبوا عن فكره وعن أشعاره، وهكذا ترجمت أشعاره إلى العربية في حياته وبعد مماته، كتب عنه أدباء العربية ومفكروها الكبار، واهتم بأدبه وبفكره الباحثون في مختلف جامعات العـالم العـربي، وأثمرت جهودهم مؤلفات طبعت ونشرت في ربوع العالم العربي، لتغطي بصورة أو بأخرى معظم الجوانب الفكرية والأدبية عند إقبال، وهو ما نلاحظه في الصفحات التالية .

أما الجانب الآخر وهو اهتمام إقبال بالعرب فسوف نناقش فيه اهتمام إقبال بالعربية وأدبها، ونوضح كيف أثر الأدب العربي في فكر إقبال وفي شعره، وكيف تأثر إقبال بالقرآن الكريم والسنة فجاء أدبه أدباً إسلامياً بحق . وتضمن الحديث عن موضوع اهتـمام إقبـال بالعـالم العـربي حضور العالم العربي الدائم في شعر إقبال، وبالتالي سنعرض لنماذج من أشعاره تناول فيها الوضع في الشام والاحتلال الفرنسي، وجهاد ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي، كما سنعرض لنماذج شعرية توضح اهتمام إقبال بما كان يدور في مصر من أحداث وصلتها بما كان يدور في الهند آنذاك، أما موضوع فلسطين في شعر إقبال فسنفرد له صفحات وذلك لما لفلسطين من أهمية عند إقبال الذي يفضح في شعره سياسة الغرب والصهيونية، ومن المعروف أن إقبالاً زار فلسطين ونظم بعض الأشعـار على أرضها. وفي النهاية سنعرض بالتفصيل علاقة إقبال بالجزيرة العربية وموقفه من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ثم مكانة الجزيرة العربية في قلب إقبال

وأخيراً إقبال وتوحيد الجزيرة، كل هذا من خلال نماذج من أشعار إقبال التي تناثرت كالدرر على صفحات دواوينه الشعرية .

ولا بد من الإشـارة هنـا إلى أنـه قد تم إثبات النصوص الأصلية لأشعار إقبال الفـارسية والأردية في حواشٍ منفصلة مع توثيقهـا بمصادرها وفي النهاية أثبتنا أهم المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها أثناء إعداد هذا البحث المتواضع والله ولي التوفيق .

اقبـال والعـرب

اقبـــال :

محمد إقبال هو أحد أولئك الرجال القلائل الذين بعثوا النور في سماء الشرق من أمثال الأفغاني والشيخ محمد بن عبدالوهاب وغيرهما، ولد في مدينة سيالكوت إحدى مدن البنجاب بباكستان في الثالث من ذي القعدة سنة ١٢٩٤ للهجرة الموافق للتاسع من نوفمبر سنة ١٨٧٧م[١] ونشأ في أسرة طيبة فأبوه الشيخ نور محمد كان يواظب على تلاوة القرآن الكريم، وأمر ابنه بالمواظبة على ذلك، وأمه كانت تقية ورعة تواظب على الصلاة والصوم، وقد توفيت قبل وفاة زوجها بست عشرة سنة (١٣٣٢هـ - نوفمبر ١٩١٤م).

بدأ إقبال تعليمه الأولي وهو في الخامسة من عمره فدرس في المسجد على يد السيد مير حسن، وكان عالماً بآداب العربية والفارسية والأردية، وقد نصح والد إقبال بأن يُلحق إقبالاً بالمدرسة الثانوية للإرسالية الأسكتلندية Scottish Mission High School بمـدينـة سيالكوت، وكان السيد مير حسن يُدرِّس العربية والفارسية في المدرسة المذكورة، فأتم إقبال تعليمه الثانوي ثم انتقل إلى مدينة لاهور أواخر عام ١٨٩٥م/١٣١٣ للهجرة ليدرس بالكلية الحكومية اللغة العربية واللغة الإنجليزية والفلسفـة، وبعـدهـا واصـل دراستـه للماجستـير في الفلسفة، وأنهى دراسته عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م، وكان يدرس القانون منتسباً إلى الجامعة وأكمل دراسته القانونية فيما بعد في أوروبا.

بعـد أن حصـل إقبال على شهادة الماجستير عين أستاذاً للغة العربية في الكلية الشرقية بلاهور، وذلك في ذي الحجة ١٣١٦هـ / مايو ١٨٩٩م لمدة أربع سنوات،

(١) انظر تحقيق الاختلاف في تاريخ مولده في كتاب محمد إقبال وموقفه من الحضارة الغربية إعداد خليل الرحمن عبدالرحمن ط دار حراء مكة المكرمة ١٤٠٨ هجرية ١٩٨٨م.

عُيِّن بعـدهـا أستـاذاً للإنـجـليزية والفلسفـة بالكلية الحكـومية بلاهــور في ربيع الأول ١٣٢١هـ / يونية ١٩٠٣م وفي أواخـر سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م حصل على إجازة لاستكمال دراسته في أوروبا[٢]

التحق إقبال بكلية الثالوث بجامعة كمبردج في شعبان ١٣٢٣هـ/أكتوبر ١٩٠٥ وسجّل في نفس الوقت موضوعاً للدكتوراه بعنوان « تطور الميتافيزيقا في فارس » Development of Metaphisics in Persia في جامعة ميونيخ بألمانيا، وبعد حصوله على درجة الـدكتوراه عاد إلى الهند في جمادى الأولى ١٣٢٦هـ / يونيه ١٩٠٨م ليعمل بالمحاماة والتدريس أحياناً، وتزوج إقبال بثلاث زوجات، وحدث أن جمع بين أزواجه الثلاث في بيته في آن واحد[٣].

عاش إقبال حياة امتلأت بالنشاط العلمي والأدبي الذي وجهه لخدمة الإسلام والمسلمين إلى أن توفاه الله في ربيع الأول ١٣٥٧هـ/أبريل ١٩٣٨م ويُحكى أنه أنشد قبيل وفاته رباعيته التي قال فيها :

« سرود رفـتــه باز آيد كه نآيد
نسـيمــي از حجــاز آيد كه نآيد
سر آمــد روزكَــار اين فقــيري
دكَــر دانــاي راز آيد كه نآيد»

«نغـمات» مضــين لي هل تعـود ؟
أنـســيم الحـجــاز يعـود ؟
آذنَـــتْ عَيْشَــتي بوشــك رحـيلٍ
هل لعــلم الأسرار قلبٌ جديدُ»

(٢) انظر عبدالوهاب عزام محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره بيروت ١٩٧٢م وأيضاً د. أحمد معوض العلامة محمد إقبال حياته وآثاره مصر ١٩٨٠م.

(٣) جاويد إقبال زنده رود جـ١ ط لاهور ١٩٨٢م (بالأردية) .

بالنسبة للجانب الأدبي عند إقبال يهمنا أن نذكر أنه كتب الشعر بالأردية والفارسية وتمنى أن يكتب بالعربية، كما كتب نثراً بالأردية إلا أنه لا يدخل ضمن النثر الفني سِوى بعض رسائله لأصدقائه ومعارفه، كما كتب بالإنجليزية أيضاً .

ينقسم الانتاج الأدبي لاقبال إلى أربع مراحل :

المرحلة الأولى من بداية قوله الشعر وحتى سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م، وهذه المرحلة شهدت بعض الأشعار التي تميزت بالتعبير عن الوطن مثل النشيد الهندي، ومنظومة هذا هو وطني وما إلى ذلك(٤). ويحكى أنه لفت أنظار كبار الشعراء حين ألقى قصيدة مساء أحد أيام جمادى الأولى ١٣١٣هـ/نوفمبر عام ١٨٩٥م جاء فيها :

«لقد التقطت الرحمة الربانية قطراتِ عرقٍ تصببت من جبيني - بسبب شعوري بالخجل والندم - وحسبتها درراً ولآلىء»(٥) .

وأعلن إقبال أنه لا ينتمي إلى مدرسة دهلي أو إلى مدرسة لكهنو وأنه أسير لجمال الفن وكماله أينما كان. ونظم «أنين اليتيم» «خطاب يتيم إلى هلال العيد» وفي عام ١٩٠٤م نظم قصيدة بعنوان «صورة الألم» في حفلة أقامتها جمعية حماية الإسلام وبيعت أبيات المنظومة بيتاً بيتاً(٦) .

المرحلة الثانية من عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م إلى عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وهي تشمل الأشعار التي نظمها أثناء إقامته في أوروبا، وتضمنت أشعارهُ نقداً للحضارة الغربية، وتحرّك إقبال من مرحلة الوطنية إلى مرحلة الشعور الإسلامي والشعور بالأمة الإسلامية، والإشادة بعظمة الإسلام، وتذكير المسلمين بقوتهم وعظمتهم في ظل تمسكهم بالدين الحنيف(٧) .

---

(٤) جامعة البنجاب تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند المجلد العاشر ص ٥٩ ط جامعة البنجاب ١٩٧٢م (بالأردية) .

(٥) موتي سمجهوكَي شان كريمي نـ جن لشي قطري جو تهمي مري عرق انفعال كي

(٦) تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند المجلد العاشر ص ٦٣.

(٧) المصدر السابق ص ٦٠

المرحلة الثالثة من عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م إلى عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م وهي الفترة التي شهدت انهاء حركة الخلافة وحوادث أخرى غيرت الكثير من معالم البلاد الإسلامية، وظهور حزب الرابطة الإسلامية مطالباً بالحفاظ على حقوق المسلمين بالهند. ومن هنا تعكس أشعار إقبال أحداثَ ما قبل الحرب العالمية والخلافة الإسلامية ثم حركة إحياء جديدة رفعها عالية أمام شباب المسلمين، أخذ إقبال يحذر الشباب من فتنة الحضارة الغربية، ويوضح لهم دور الإسلام في الثورة الإنسانية العالمية، كما ركز على إبراز الشخصية الإسلامية لمسلمي الهند. وقد كتب إقبال في هذه الفترة ديوان الأسرار والرموز (أسرار خودي - رموز بيخودي) بالفارسية لأنها كانت اللغة المقبولة لدى مسلمي آسيا آنذاك في إيران وأفغانستان والهند ومناطق جنوب روسيا الحالية، وكتب إقبال بالأردية منظومة شكوى وجواب شكوى، وقد أشاد بأتاتورك في مواجهته لليونان، وبعد أن ألغى أتاتورك الخلافة تأثر إقبال كثيراً، وعاتب أتاتورك وحذر الأتراك من اتجاههم للغرب وكتب ديوان « بانكَ درا » جرس القافلة، و« بيام مشرق » رسالة الشرق ثم كتب بالفارسية « زبور عجم » .

الفترة الأخيرة وتمتد من عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م إلى عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م وفيها تضمنت أشعارُه أفكاراً جديدة فقد تحدث عن السياسات العالمية، وعن التفرقة في السياسة الغربية، وهاجم سياسة اللادينية ونقد النظم الرأسمالية والشيوعية، وأوضح أن الإسلام هو النظام الوحيد الذي يضمنُ نجاة العالم، ومن أعظم قصائد إقبال في تلك الفترة «ساقي نامه»، «مسجد قرطبة»، «ذوق وشوق»، وقد نظم دواوينه «جاويد نامه» بالفارسية و «بال جبريل» أي جناح جبريل بالأردية و«ضرب كليم» بالأردية «ومثنوي مسافر» بالفارسية ومثنوي «بس جه بايد كرد أي أقوام شرق ؟» ما العمل اذن يا أمم الشرق؟ بالفارسية و «أرمغان حجاز» بالفارسية والأردية أي هدية الحجاز[٨].

(٨) انظر المصدر السابق ص ٦٢ وأيضاً تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند فارسي أدب المجلد الثالث ص ٤٥٦ - ٤٧٢ .

إهتمام العرب بإقبال

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي «كنت مدرساً في دار العلوم التابعة لندوة العلماء، ومقيماً مع أخي الأستاذ مسعود الندوي مؤسس مجلة الضياء العربية، وكنا نتناشد شعر إقبال، وكان يغيظنا أن طاغور أشهر في الأقطار العربية من إقبال، وإعجاب إخواننا العرب والأدباء بشعره أكثر، وكنا نعد ذلك تقصيراً منا في التعريف بشعر إقبال، وكلما رأينا تنويهاً بشعر طاغور وإطراءً له في مجلة عربية قوي عزمنا على ترجمة شعر إقبال. . . » وقد قدر الله أن اجتمع الندوي بالشاعر العظيم قبل وفاته، ويقول الشيخ الندوي: «وأذكر أنني استأذنته في ترجمة شعره إلى العربية في ذلك المجلس، فتكرم بذلك، وأنشدته بعض قصائده من «ضرب كليم» وذكر إقبال الأستاذ عبدالوهاب عزام وأنه ينوي ترجمة شعره»[٩].

بعدها كتب الأستاذ مسعود الندوي مقالة نشرت في «الفتح» التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب بالقاهرة، وكتب الشيخ أبو الحسن الندوي ترجمة لحياته أذيعت من محطة الإذاعة في جدة، كما ألقى محاضرات بدار العلوم جامعة فؤاد الأول (حالياً القاهرة) وكتب مقالة بعنوان «محمد إقبال في مدينة الرسول» أذيعت من الإذاعة السورية، ثم «فتر عزمه بعد أن علم أن الدكتور عبدالوهاب عزام عاكف على ترجمة شعر إقبال بالشعر»[١٠]

وبعد فترة طالت، كتب الشيخ علي الطنطاوي رجاءً في مجلة المسلمون التي كانت تصدر من دمشق إلى الشيخ الندوي لترجمة أشعار إقبال[١١] فعاد الندوي لترجمة أشعار إقبال، واقتصر كما قال على الدواوين التي لم يتناولها المرحوم عبدالوهاب عزام بالتعريب[١٢].

والحقيقة أن إقبالاً عُرف في البلاد العربية بين طبقة المثقفين في فترة أسبق من تلك

---

(٩) الندوي: روائع إقبال ص ١٣.

(١٠) المصدر السابق المقدمة.

(١١) المصدر السابق ص ١٧.

(١٢) عدد ٣ مجلد ٦.

التي يذكرها الشيخ الندوي، ففي أثناء رحلته إلى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م/١٩٣٢م زار مصر وفلسطين، بل يوجد بين رسائل إقبال لأصدقائه عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م ما يدل على أنه كان معروفاً في أوساط المثقفين، فإقبال يحكي في رسالة أرسلها من كمبردج في نوفمبر ١٣٢٣هـ/١٩٠٥ إلى أحد أصدقائه وتتكون من خمس صفحات، عن لقائه ببعض المصريين في السويس ثم يقول: (. . . وصلنا إلى بور سعيد وكانت الساعة الثالثة صباحاً وكنت نائماً فأيقظني دكتور مصري اسمه سليمان فاستيقظت وجلست معه وتقابلت مع مجموعة من الشباب المصري وكلهم أعضاء في جمعية الشبان المسلمين وسررت كثيراً بهذا اللقاء، وأرسل إليّ « لطفي بيه » وهو من أشهر المحامين بالقاهرة سلاماً على لسان « الدكتور سليمان » وقدم لنا دعوة لزيارة القاهرة. . .)[١٣] .

في رجب ١٣٥٠هـ ديسمبر ١٩٣١م وصل إقبال إلى القاهرة قادماً من الإسكندرية وأقام خمسة أيام قابل خلالها عدداً من رجال العلم والصحافة والسياسة ومنهم شيخ الأزهر ومفتي الأزهر، ومحمد علي وزير الأوقاف الأسبق، والدكتور محمد حسين هيكل مدير السياسة، والشيخ رشيد رضا مدير مجلة المنار، كما ألقى محاضرة في حفلة جمعية الشبان المسلمين وكلّف وكيل الجمعية الشيخ عبدالوهاب النجار الدكتور عبدالوهاب عزام أن يعرف الحضور بالضيف الكريم فتحدث الدكتور عزام عن إقبال على قدر معرفته به يومذاك وأنشد بعض الأبيات من ديوان « رسالة المشرق »[١٤] ثم غادر إقبال القاهرة إلى فلسطين ووصل القدس صباح السادس من ديسمبر وكان من بين مستقبليه الشيخ المفتي أمين الحسيني .

يفهم مما سبق أن الدكتور عبدالوهاب عزام هو أول من قدم إقبالاً إلى القراء العرب، وقد ترجم ديوان « بيام مشرق » أي رسالة الشرق ونشر عام ١٣٧١هـ / ١٩٥١م في كراتشي كما ترجم ديوان « ضرب الكليم » ونشر بالقاهرة عام ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م وبعدها ترجم « إقبال في مسجد قرطبة » وطبعته سفارة باكستان

(١٣) روائع إقبال ص ٢٠ .

(١٤) ظهور اظهر : إقبال العرب على دراسات إقبال ص ١١٨ ط المكتبة العلمية لاهور .

في جدة عام ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م وقام بعدها بترجمة الأسرار والرموز وطبع بالقاهرة عام ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ثم نشر كتاباً عن إقبال حياته وسيرته وفلسفته ونشر عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م بالقاهرة وفي نفس العام نُشر للشيخ أبي الحسن الندوي كتابه « روائـع إقـبـال » عن دار الـفـكـر بدمـشـق وأعـيد نشره في بيروت عام ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م مع زيادات، وأعيد طبعه مرة ثالثة عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م في الكويت. وكان الأستاذ محمد حسن الأعظمي مع الشيخ الصاوي شعلان قد كتب كتاباً بعنوان « فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند وباكستان » وطبع بالقاهرة عام ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م ثم أعيد طبعه بدمشق عام ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م كما كتبا أيضاً كتـابـاً بعـنـوان « الحياة والمـوت في فلسفـة إقبـال » صدر في كراتشي سنـة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، وقام الشيخ الصاوي شعلان فنشر مختارات من شعر إقبال عام ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م في إسـلام آباد وكان قد نشر الأنشودة الإسلامية في عام ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م في طهـران وفي عام ١٣٦٣هـ / ١٩٧٣م صدرت له ترجمة منظومة « شكوى وجواب شكوى » ثم صدر له بعد ذلك قصيدة « حديث الروح » « وطلوع إسلام » بالقاهرة، وكل ما ذكرناه هنا مأخوذ ـ في معظمه ـ عن الكتاب الذي كتبه مع الأعظمي بعنوان « فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند وباكستان » . وكتب الشيخ شعلان أيضاً كتاباً بعنوان « إيوان إقبال » صدر في القاهرة .

وكتب الأستاذ نجيب الكيلاني كتاباً بعنوان « إقبال الشاعر الثائر » نال عليه جائزة وزارة التربية والتعليم لعام ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م (قسم التراجم والسير) وصدرت طبعته الثالثة عن مؤسسة الرسالة بدمشق ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

إهتم الكثير من الأدباء العرب والدارسين العرب بإقبال إلا أن الإهتمام كان بقدر معـرفتهم بإقبال عن طريق ما ترجمه الدكتور عزام في الخمسينات، فكتبوا مقالات متفرقة، وألقوا بأحاديث هنا وهناك في تقريظ إقبال، وفي بيان عظمته مثلما فعل عباس محمود العقاد، الذي رأى أن تحية العظماء في ذكراهم فريضة واجبة في كل زمن وفي كل وطن[١٥] وكـما فعـل الـدكتور محمد حسين هيكل الذي كتب عن إقبال شاعراً

(١٥) عزام : محمد إقبال ص ٦٥ وما بعدها طبعة القاهرة .

إسلامياً وشرح نظرية الذات عند إقبال[16] وكتب الأستاذ أحمد حسن الزيات عن تقوية الذات عند إقبال، أما طه حسين فعقد مقارنة طيبة بين إقبال وأبي العلاء في مقال بعنوان « إقبال وأبو العلاء »[17] وشكر في نهاية المقال الدكتور عزام الذي كان صلة بينه وبين إقبال. أما الأستاذ فتحي رضوان الذي رافق إقبالاً حين زار القاهرة فقد كتب عن إقبال الفيلسوف ونقل ما كتبه الدكتور عبدالوهاب عزام[18]، وممن تأثروا بإقبال فلسفياً الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة ـ سابقاً ـ والذي أحدث مذهباً فلسفياً سماه « الجوانية » والجوانية هي الذاتية التي ركز عليها إقبال إلا أن د. عثمان أمين حاول تفسير كتابات إقبال على ضوء كتابات فلاسفة الغرب مثل كانت وغيره[19] كما كتب الدكتور أحمد الشرباصي مقالاً بعنوان « من نفحات إقبال شاعر الإسلام الأكبر » وأخذ جميع استشهاداته مما ترجمه عزام .

حصل كاتب هذه السطور على درجة الماجستير عن أطروحة بعنوان « إقبال وديوان أرمغان حجاز عصره، فكره، أدبه ترجمة وتحليل الديوان » وذلك عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م وطبع البحث في لاهور باكستان عام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٦م ويتناول البحث دراسة لعصر إقبال وفكره وأدبه الفارسي والأردي مع دراسة للديوان وترجمته ترجمة كاملة بقسميه الفارسي والأردي، وفي عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م أعدتُ نشر ترجمة الدكتور عزام لديوان الأسرار والرموز مع دراسة وتحقيق واستكمال ترجمة بعض الأشعار التي تركها د. عزام دون ترجمة، وصدر الكتاب عن المكتبة العلمية ومطبعتها بلاهور، ثم صدرت له طبعة ثانية عن دار الأنصار بالقاهرة عام ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م وعن نفس الدار صدر لنا كتاب بعنوان السبيل إلى وحدة العالم الإسلامي بين إقبال والمودودي، وكان ذلك عام ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .

دفع الإهتمام بإقبال بعض الباحثين إلى تغيير اهتماماتهم والتركيز على أعمال إقبال، فقد قام الدكتور حسين مجيب المصري ـ الذي وجه جل اهتماماته إلى الأدب التركي

(١٦) إقبال العرب على دراسات إقبال ص ١ .

(١٧) المصدر السابق ص ٨ ـ ١١ .

(١٨) المصدر السابق ص ٣١ ـ ٣٩ .

(١٩) المصدر السابق ص ٥٣ .

أساساً ـ بترجمة ديوان « جاويد نامه » شعراً بعنوان « في السماء » ونشر بالقاهرة عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م وكان قد سبقه إلى ترجمته نثراً مع دراسته د. محمد السعيد جمال الدين ونال بذلك درجة الدكتوراه وقد نشر بحثه عام ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، وبعدها قام الدكتور مجيب المصري بترجمة الجزء الفارسي من « أرمغان حجاز » شعراً ونشره عام ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ثم ترجم « كَلشنِ رازِ جديد » أي روضة السر الجديد شعراً أيضاً بعدها بعام، وقام أخيراً بإصدار كِتاب بعنوان « إقبال والقرآن » .

وفي العراق صدرت بعض الكتيبات تناولت مختارات من شعر إقبال بالدراسة فصدر للأستاذة حمدية مجيد كتاب بعنوان « إقبال الشاعر والفيلسوف والإنسان » ونشر بالنجف عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م وفي سوريا أصدر أسعد محفل مع آخرين كتاباً بعنوان «ذكرى إقبال»، وصدر في دمشق وهو بدون تاريخ ، وفي اليمن ألقى الأستاذ عمر بهاء الدين أميري محاضرة بجامعة صنعاء في رجب عام ١٤٠٤هـ/أبريل١٩٨٤م بعنوان «في رحاب الفكر الإسلامي العظيم ـ إقبال والزبيري»، والزبيري هو الشاعر اليمني الكبير محمد محمود الزبيري وطبعت المحاضرة في جدة ١٤٠٨ هجرية عن سفارة باكستان، وفي مكة صدر كتاب بعنوان «إقبال وموقفه من الحضارة الغربية» لخليل الرحمن عبدالرحمن عن دار حراء ١٤٠٨ هجرية / ١٩٨٨م وهو بحث نال به درجة الماجستير، هذا كما قامت وحدة التعليم بالسفارة الباكستانية الرياض وجدة حديثاً بإصدار كتيبات عن «إقبال والقضايا المعاصرة» «وإقبال والأمة الإسلامية» «وفلسفة الحياة والموت عند إقبال» «والمسئولية الأخلاقية في فكر إقبال»، وفي لاهور صدر عن المكتبة العلمية كتاب بعنوان «إقبال العرب على دراسات إقبال» وهو تجميع لبعض المقالات التي كتبها المفكرون والأدباء العرب قام بتجميعها د. ظهور أظهر أستاذ العربية بجامعة البنجاب، هذا غير ما نطالعه في الصحف والمجلات مما يكتب عن الجوانب المختلفة في فكر وأدب إقبال. . . وهكذا ذاع صيت إقبال وعرفه الجميع وصارت أشعاره تنشد وتغنى بالعربية فضلاً عن الأردية والفارسية .

اهتمام إقبال بالعرب

ينقسم حديثنا في هذا الصدد إلى قسمين :

الأول عن اهتمام إقبال باللغة العربية والأدب العربي والثاني عن اهتمامه بالعالم العربي ومجريات الأمور فيه، وسيكون حديثنا هنا مستمداً من أدب إقبال الشعري سواء ما كتبه بالفارسية أو ما كتبه بالأردية .

كما ذكرنا بدأ إقبال تعليمه الأوّليّ في مدرسة ملحقة بالمسجد، فدرس القرآن الكريم وعلوم الدين، كما درس آداب اللغة العربية على يد الشيخ مير حسن، كما تأدب بآداب القرآن الكريم على يد والده الذي كان يواظب على تلاوة القرآن والذي أمر أولاده بالمواظبة عليها كل يوم، وإقبال نفسه يرجع سر بلاغته التعبيرية إلى توجيهات أبيه الذي عوده على تلاوة القرآن الكريم صباح كل يوم، ثم درس إقبال في الكلية الحكومية اللغة العربية مع الإنجليزية والفلسفة وتتلمذ على يد السير توماس أرنولد الذي عمل أستاذاً للغة العربية في جامعة لندن قبل أن يعمل أستاذاً للفلسفة في جامعة عليگره سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م انتقل بعدها إلى لاهور، وتشير المصادر المختلفة إلى أنه أعجب كثيراً بذكاء تلميذه محمد إقبال وشجعه على مواصلة دراساته العليا .

تولى إقبال تدريس اللغة العربية في الكلية الشرقية بلاهور في ذي الحجة ١٣١٦هـ / مايو ١٨٩٩م، واستمر في ذلك عدة سنوات، وفي لندن حدث أن اضطر الأستاذ أرنولد إلى الانقطاع عن عمله كأستاذ للغة العربية في جامعة لندن لبضعة أشهر فاختار إقبالاً ليحل محله أستاذاً للغة العربية لفترة ستة أشهر(٢٠) .

كان إقبال معجباً أشد الإعجاب بالشعر العربي القديم فقد أعجبه صدق الشعر العربي وواقعيته، وما يشتمل عليه من معاني البطولة والفروسية، وكان يحفظ الكثير من أبيات ديوان الحماسة وغيرها، وكان يرى أن العقل العربي كان أقوى على فهم الإسلام فهماً صحيحاً وأجدر بحمل أمانته(٢١) . وينقل الشيخ أبو الحسن الندوي حديث إقبال إليه عن اللغة العربية فيقول: «قال ـ أي إقبال ـ أشرت على بعض أمراء

(٢٠) زنده رود جـ ١ ص ١٢٥ .

(٢١) الندوي ، روائع إقبال ص ١٤ .

المسلمين أصحاب الإمارات الهندية بنشر الإسلام في غير المسلمين ونشر الثقافة الإسلامية، وإحياء اللغة العربية وآدابها في هذه البلاد. . .»[٢٢].

والواقع أن تفكير إقبال بأكمله تفكير إسلامي، إذ أنه جمع أفكاره مباشرة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهكذا وضحتْ الروحُ الإسلامية في شعره وفي مقالاته وفي خطبه، وقد أقام إقبال مدرسته الفكرية الخاصة بعد أن طابق أفكار وآراء أعظم مفكري الشرق والغرب على الحقائق القرآنية، وصبغ تصوره للحياة بصبغة علمية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية[٢٣]. والقرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدري الأدب الإسلامي وغذاؤه ونبعه ورواؤه وقوته، ورغم أن أدب إقبال لم يصدر باللغة العربية إلا أنه حمل فكرة الإسلام وعاطفة الإسلام، كما أن اللغة العربية ظَلَّلَتْ أدب إقبال بفرعيه الفارسي والأردي .

من الملاحظ أن كل من كتب عن إقبال كتب عن تأثره بجلال الدين الرومي ونيتشه وبرجسون وفيشته والجيلي، وتأثره بالفلسفة الهندية القديمة والفلسفة الأوروبية الحديثة والشعراء الألمان والإيطاليين والإنجليز، إلا أن الأدب العربي الذي يُعد عنصراً هاماً جداً بل أساسياً جداً عند إقبال، قد تجاهله الكثيرون .

والأثر الذي تركه الشعراء العرب في الشعراء الإيرانيين لا يحتاج إلى بيان، وعن طريق الفارسية إنتقل هذا التأثير إلى الأردية، ولا نُغالي إذا قلنا إن مضامين وأفكار الشعراء العرب قد تركت أثرها بوضوح على كل الشعراء المسلمين، فحياة العرب كانت تقوم على السفر والترحال، فهم اليوم هنا وغداً هناك بحثاً عن رزق جديد وعيون ماء وعن مروج ومراع جديدة، وترك هذا في شعرائهم أثره فظهرت لديهم المنازل، وفراق الأحبة وفرقة الطريق والقوافل العابرة. . . إلخ وانتقل هذا بدوره إلى شعراء المسلمين، وهكذا تأثر إقبال بالأدب العربي .

رغم أن إقبالاً أجاد الفارسية أكثر من العربية إلا أن العربية تغلغلت كثيراً في

(٢٢) المصدر السابق ص ١٦ .

(٢٣) سمير عبدالحميد ، إقبال وديوان أرمغان حجاز طبع المكتبة العلمية بلاهور ص ٣١ .

روحه، فالعربية متعلقة بالعرب، والعرب أعزاء عليه، وقد أوجد هذا نصيباً من الحب في قلبه وفي عقله مما أثر على بيئته الذهنية، ومن يدري فقد تكون حركة تسلسل الحياة في الجزيرة العربية وما فيها من حركة دائمة دائبة عاملاً هاماً وأساسياً في بناء النظام الفكري العام لإقبال، ومن هنا كان لكل من إقبال وطاغور طريقٌ منفصل، فالإثنان يرجعان إلى أصل واحد كما أنه ليس هناك أي فرق بينهما سواء في التاريخ السياسي أو الطبيعة الجغرافية لكل منهما، إلا أن الجغرافية الذهنية والتاريخ الفكري قد تغير، فورث أحدهم فلسفة السكون والآخر فلسفة الحركة، ومن الملاحظ أن الارتقاء الفكري عند إقبال كان تدريجياً، فقبل سفره إلى أوروبا وفي الجزئين الأولين من ديوانه « بانكَ درا » نشاهد قلة التأثيرات العربية والإسلامية، وبعد العودة من أوروبا تغير الخط الفكري، فتراجع عن القومية واتجه إلى الأمة الإسلامية، وقد بدأ هذا واضحاً في الجزء الثالث من ديوانه « بانكَ درا » وفي «أسرار خودي» وظهر جلياً في ديوانه الأخير «أرمغان حجاز» .

يظهر الأثر العربي في كلام إقبال بطرق مختلفة ، فبعضه واضح وصريح وبعضه بالإشارة والتلميح، والبعض الآخر يظهر من خلال الصور الخيالية في الشعر، وإقبال يصرح بأن العرب هم صانعوَ التمدن ومؤسسو النظم الأخلاقية، ويبين أن العرب الذين سكنوا الصحراء هم فاتحو العالم وهم زينتُه، وفي القصص التي استوحاها إقبال من القرآن الكريم والحديث الشريف ونظمها في شعره تأثر فيها إلى حد كبير ببعض عناصر الأدب العربي، ويتضح هذا في ديوان «بانكَ درا» حين نظم قصة الخضر، فهو يجعل القارىء يشعر ويحس بأصواتِ الرحيل في الصحراء وقيظِ الرمال والقوافِل وهي تلقي برحلها حول عيون الماء، وكذلك مناظر النخيل في الصحراء والواحات، تلك التي لم يشاهدها إقبال بعينيه، فقد مر بالقاهرة والقدس فقط، وما ذكره عن صحراء الجزيرة العربية كان من بنات خياله، ولقد أوحت كلمة النخيل لإقبال أن يُنشد نظمه الشهير «ذوق وشوق في القدس» حيث استخدم في شعره كلمات مثل جبل اضم ويذكر (كاظمة) التي كانت العرب تطلقها على منزل الحبيب فالشاعر العربي يقول:

ألم يبلغك ما فعلت ظباه   بكاظمة غداة لقيت عمرا

ومثل هذه الكلمات التالية وردت بكثرة في شعر إقبال: القافلة ـ الزمام ـ المقام ـ السبيل ـ الخيمة ـ النخل والنخيل وغيرها من الكلمات العربية .

وفي منظومة «مسجد قرطبة» يخاطب إقبال المسجد على طريقة الشعر العربي، ومع أنه أنشد المنظومة في أسبانيا إلا أنه ساح في فضائها بذهن عربي، ولهذا ظهر النظم بمزاج عربي فهو يشبه أعمدة المسجد بكثرة النخيل، نخيل صحراء الشام، وقد اختار صحراء الشام خاصة لمناسبتها لهذا المقام، فمن الشام كان عبدالرحمن الناصر باني المسجد، ومثل هذه الأشياء نجدها في ديوانه «بال جبريل» وكذلك في «جاويد نامه» فإقبال يخاطب المهدي فيتحدث عن الناقة وعن الصحراء والنخيل ويثرب، أما إذا انتقلنا إلى محتوى ديوان «جاويد نامه» فإننا نقول بكل تأكيد أن الخلفية الأساسية للديوان عربية، فهو يشدنا إلى كتاب أبي العلاء المعري «رسالة الغفران»، وإلى محيي الدين بن عربي وكتابه الفتوحات المكية وقد تأثر دانتي بالأخير، وأشار إقبال إلى هذا في أكثر من موضع[٢٤] .

ذكر إقبال من الشعراء العرب : العتبي والمعري وعمرو بن كلثوم والبوصيري وكعب بن زهير وزهير بن أبي سلمى وامرؤ القيس وغيرهم، وها هو في ديوان «أرمغان حجاز» يضمن أشعاره بيتاً لعمرو بن كلثوم فيقول في إحدى رباعياته :

صبنت الكأس عنا أم عمرو　　　وكان الكأس مجراها اليمينا
أكَر اين است رسم دوستداري　　　بديوارِ حرم زن جام ومينا

وإقبال يستخدم في شعره فتيل الرهبان الذي ذكره شعراء العرب فامرؤ القيس يقول:

تُضيء الظلامَ بالعشيِّ كأنها　　　منارةُ ممسٍ راهبٍ متبتل

وإقبال يقول ما ترجمته :

إن ليل هذا الجبلْ والوادي صدر مظلم　　　ليس فيه طائر ولا موج ولا ماء

(٢٤) د. عدنان النحوي، الأدب الإسلامي .

صار مضيئاً من قنديل الراهب   حتى كأنك تظن أن الشمس قد طلعت

وفي مثنوي «بس جه بايد كرد أي أقوام شرق «ما العمل إذن يا أمم الشرق ؟ ينصح إقبال العرب بالتخلص من عبودية الإفرنج قائلاً ما ترجمته :

لو أردت النجاة من خداعه فأبعد جمالَه عن حوضِك

وقال زهير بن أبي سلمى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لم يظلم الناس يُظلَم

وفي قرطبة يخاطب إقبال مسجد قرطبة :

جلالك وجمالك دليل على الإنسان الرباني
إن الله جميل وجليل وأنت فيك الجمال والجلال

ويذكرنا هذا يقول عبدالرحمن الناصر باني مسجد قرطبة :

إن البناء إذا تعاظم قدره   أضحى يدل على عظيم الشأن

ويقول أبو فراس الحمداني :

صنائع فاق صانعها ففاقت   وغرس طاب غارسها فطابا

والرمز في شعر إقبال كثير، وقد حاول إقبال أن يوجد بمساعدة رمزيته خيالاً مرئياً للعالم غير المرئي، ورمزيته لا تعطي شكلاً ما لكن امتزاج الحياة وتفتح الحياة واضح فيها، فهي لا تسمي الأشياء بأسمائها بل تضع اشعاعاتها، وجمال رمزية إقبال يكمن أساساً في أنها تختلف تركيباً عن تلك التي استخدمها الشعراء الآخرون سواء في الأردية أو الفارسية، ذلك أن إقبالاً استعان باللغة العربية والشعر العربي والتاريخ العربي، فرمزية إقبال نراها في: « إبراهيم ونمرود ـ موسى وفرعون ـ حسين ويزيد ».

فهذه قصص للاجتهاد الديني في تاريخ الإنسان إلا أنها عند إقبال تدل على النضال الأبدي بين الخير والشر .

ومحمود واياز تدل على حب الملك لخادمه لكنها عند إقبال تعبر عن العلاقة بين العاصمة وعمالها، وهكذا.

ومن الصور الجميلة التي استوحاها إقبال من هضاب « نَجْدٍ » تلك الصورة الشعرية التي رسمها لمجنون ليلى فيقول: إن سبب اضطراب المجنون هو أن المحمل خال وليلى قد اختفت[٢٥] ومن التشبيهات الجميلة التي ساقها إقبال انتقاده لجفاف العلم واتساعه وتضخمه على حساب العاطفة الدينية فيقول:

« إن عالِمَ الدين هذا لا يحمل همًّا، إن عينَه بصيرة ولكنها جافة لا تدمع، لقد زهدتُ في صحبته لأنه عالِم ولا هم، وأرض مقدسة، ليس بها زمزم ».

فإقبال شبَه العالِمَ بالحجاز لأنه يحمل عِلماً كثيراً وعقلاً كبيراً، ولكنه مع الأسف رمال جافة وجبال جرداء ليس فيها زمزم، ومكة ببيتها وبزمزمها، ليست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب، ولنقرأ الأبيات التالية التي تحمل صورة شعرية جميلة ومعبرة:

«إن إخواني لم يعلموا ما قلتُ لهم
إنهم لم يجنوا الرطَبَ من نخلِ شعري
ذلك لأنهم لا ينظرون إليّ إلا كشاعر أو متغزل»[٢٦].

وهناك صورة أخرى جميلة فإقبال يصف النجوم كحصاد في حقل يُجمع في مزرعة الليل[٢٧].

وتحت تأثير الشعر العربي عارض إقبال بشدة الخروج على التقسيمات العروضية العربية قائلاً: « إننا لو خالفنا قاعدة العروض فإن قلعة الشعر تنهدم، وعلى الشعراء الحاليين أن ينهجوا أسلوب التعمير لا التخريب »[٢٨].

ومن الجدير بالذكر هنا أن إقبالاً أدخل الكلمات القديمة والتعبيرات القديمة في

(٢٥) إقبال وارمغان حجاز ص ٨٥.

(٢٦) سليم جشتي، شرح أسرار ورموز ص ٤٩٤.

(٢٧) إقبال العرب على دراسات إقبال، مقال الندوي ص ٦٩.

(٢٨) S. A. Wahid, Thoughts And Reflections of Iqbal P. 122

استعمالات حديثة وخاصة في حديثه عن الموضوعات الدينية وبهذا أحيا ألفاظاً ماتت في عالم الشعر الأردي مثل : طواف ـ حج ـ زكاة ـ أذان ـ جماعت (أي جماعة) ـ حرم ـ توحيد ـ جهاد ـ مسيح ـ جمال ـ جلال ـ نور كليم ـ ضرب كليم ـ خليل ـ معجزة ـ وحي ـ مصحف ـ جبريل . واستحدث تعبيرات جديدة مثل : افتراق بولهبي ـ سرور أزل ـ فطرت أحرار ـ محروم يقين ـ مسيح بي صليب .

كما استخدم في أشعاره مصطلحات فلسفية مثل : زمان ومكان ـ صفاتِ ذاتِ حق ـ حادث وقديم ـ قلب ونظر ـ وحدتِ أفكار ـ بقاء وفناء ـ غياب وحضور ـ مقامِ كبرياء ـ مقامات ـ نشاط رحيل .

ومن المصطلحات المتنوعة لديه : مجلس شوري ـ طلسم سامري ـ تقدير أمم ـ قنديل رهباني ـ فقر غيور ـ شراب تقدير ـ ذوق تبسم ـ فيض شعور ـ تقدير حواس ـ تسخير جهات ـ كوكب تقدير ـ تقويم حيات .

وقد برع إقبال في استخدامه للمفردات العربية في شعره ولنقرأ هذا البيت من ديوان جاويد نامه بالفارسية :

صاحِب قرآن وبي ذوق طلبْ   العجب ثم العجب ثم العجب

يقول إقبال

صاحب القرآن ما ذاق الطلب   العجب ثم العجب ثم العجب

فذكره للعجب هنا ثلاثاً وفي شطر بالعربية إنما يدل على رغبة في توكيد ما يقول : وهو هنا يميز كلامه بالعربية ليكسبه الأهمية ويخلع عليه فصاحة لغة الضاد لغة القرآن(٢٩) .

ويقول إقبال في الديوان سابق الذكر :

حرف (إني جاعل) تقدير أو   از زمين تا آسمان تفسير أو

(٢٩) سيد جراغ حسن ، إقبال نامه ط تاج كمبني كراتشي .

يقــول :

قول (إني جاعــل) تقــديره بين أرض وســما تفــســيره

وهو هنا يشير إلى ما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .﴾ الآية .

وإقبال يشير إلى قصة يوسف عليه السلام في جاويد نامه قائلاً ما ترجمته :

يظهــر الياقــوت من صخر الـطريق   يوســف يخرج من جب عمــيق
ويُوَلِّي عن ديار من كفــر   ليرى من ذلــك الــكـتـفــر المــفــر

ويقــول أيضــاً :

ومـن ريح الـقـمـيص فنــل نصيبــاً   تنـسـم من ضفــاف الـنيل طيبــاً[٣٠]

وأوجد إقبال في الأردية مصطلح «يـدِ بيضــا» وجعله رمزاً لليد القادرة على انجاز العمل المثمر الذي يفيد من ثماره الناس كافة . وقد استوحاه من قوله تعالى في سورة طـه

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾

وإقبال يخاطب حليم باشا الصدر الأعظم التركي فيقول له :

تو كليمــي جنــد باشي سر نكَــون   اســت خويش أو آســتـين آوربــرون
ارفــع الــرأس تكــلم يا كليم   من يديك يصــدر الأمــر الــعـظيم
فطرتِ تو مستنــير از مصـطفي ست   باز كَو آخــر مقــامِ ما كجــا ست
أنــت حقــا مســتــنــير من محمــد   وضعنــا الحــالي فصفـه أين نوجـد[٣١]

ولنرى كيف أورد إقبال جملة : «لا خوف عليهم» في شعره وهي صفة للمؤمنين

(٣٠) د. حسين مجيب المصري ، إقبال والقرآن ص ١٧٣ .

(٣١) انظر جاويد نامه ص ٢٢٥ والترجمة للدكتور المصري .

ذكرها الله تعالى في سورة يونس، وقد أوردها إقبال في قصة موسى مع فرعون في ديوانه « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق؟ » ماذا ينبغي العمل يا أمم الشرق؟ يقول ما ترجمته :

درس «لاخوف عليهم» كان درساً أودعته الصدر للإنسان نفساً
سِحر دُنياك شرور فاتركنه «ربي الأعلى» بها السحر احطمنه[٣٢]

والأمثلة كثيرة يمكن أن نُطالعها في دواوين إقبال وأشعاره التي ترجمت إلى العربية، ونختم حديثنا عن تأثير العربية في شعر إقبال بالأبيات المترجمة التالية :

أهل حرص أي شيء حققوا «لن تنالوا البر حتى تنفقوا»
ليس من هذا الربا إلا الفتن من درى ما لذة القرض الحسن ؟
خبزنا والماء تحوي المائدة إنما الناس كنفس واحدة[٣٣]

اتصال إقبال بالعالم العربي

استقل إقبال الباخرة من بومباي في طريقه إلى إنجلترا عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م، توقفت الباخرة في عدن وبورسعيد، لم يخرج إقبال من الباخرة في عدن بسبب شدة حرارة الجو، ولكنه خرج متنزهاً في بورسعيد فزار بعض المدارس والمساجد[٣٤] يقول إقبال في خطاب لأحد أصدقائه :

« وصلنا إلى بورسعيد وكانت الساعة الثالثة صباحاً، وكنت نائماً فأيقظني دكتور مصري اسمه سليمان، فاستيقظت وجلست معه، وتقابلت مع مجموعة من الشباب المصري وكلهم أعضاء في جمعية الشبان المسلمين، ولقد سررت بهذا اللقاء وأرسل إلينا «لطفي بيه» وهو من أشهر المحامين في القاهرة سلاماً على لسان الدكتور سليمان، وقدم لنا دعوة لزيارة القاهرة. . »[٣٥] .

(٣٢) من ديوان بس جه بايد كرد ص ٣٤٢ والترجمة للدكتور المصري .

(٣٣) الترجمة للدكتور المصري .

(٣٤) رفيع الدين هاشمي، خطوط إقبال ط لاهور ١٩٧٦ م

(٣٥) ترتيب د. ظهور أظهر، إقبال العرب على دراسات إقبال ص ١١٨ .

ثم زار إقبـال مصر قبل حضوره المؤتمر الإسلامي بالقدس في أول ديسمبر عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، وصل الإسكندرية ومنها إلى القاهرة والتقى كما ذكرنا قبلاً بكبار العلماء في مصر، وألقى محاضرة في جمعية الشبان المسلمين، وبعدها اتجه إلى فلسطين لحضور المؤتمر الإسلامي العالمي حول قضية فلسطين في القدس، يقول إقبال عن زيارته لفلسطين :

«إن رحلة فلسـطين سوف تبقى خالـدة في تاريخ حياتي ففي أثناء هذه الرحلة اجتمعت مع ممثلي الدول الإسلامية، ولقد تأثرت كثيراً بشباب سوريا، فقد رأيت فيهم نوعاً من التدين والتحمس[٣٦] .

واتصل إقبال مرة أخرى بمصر عن طريق المراسلة، فقد أرسل خطاباً إلى الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر آنذاك طالباً منه أن يرسل عالماً جيداً على نفقة الأزهر يتقن الإنجليزية بجانب العلوم الإسلامية، والخطاب يلقي الضوء على أسلوب إقبال العربي ومما جاء في الخطاب :

«إنا أردنا أن نؤسس في قرية من قرى البنجاب إدارة مهمة لم يَسْبق إليها أحد إلى الآن ويكون لها شأن مع المعاهد الدينية الإسلامية إن شاء الله .

إننا نريد أن نجمع عدة رجال من الذين فازوا في العلوم الجديدة مع عدة من الذين تخصصـوا في العلوم الـدينية ويكـون فيهم صلاحية ذهنية بأعـلى ما تكـون، وهم مستعدون لصرف وقتهم في خدمة الدين الإسلامي، ونجعل لهم رواقاً متنحياً عن شعب الحضارة الجديدة والثقافة الحديثة، ليكون لهم مركزاً علمياً إسلامياً، ونرتب لهم فيه مكتبة يكون فيها كل ما يُحتاج إليه من الكتب الجديدة والقديمة . . .»[٣٧] .

العالم العربي في شعر إقبال :

رغم إن إقبالاً لم ينتقل إلى بقية أرجاء العالم العربي بجسده إلا أنه انتقل إليه بروحه وبذهنه وعاش في ربوعه من مشرقه إلى مغربه .

(٣٦) خليل الرحمن عبدالرحمن، محمد إقبال وموقفه من الحضارة الغربية ص ٢٤٠ وما بعدها ط دار حراء مكة المكرمة ١٤٠٨هجرية.

(٣٧) إقبال العرب على دراسات إقبال ـ الصفحات المعنية .

حين وصل إقبال إلى أسبانيا عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م نزل في أحد الفنادق الكبرى في قرطبة وهناك قال لمدير الفندق : « أين أحفاد العرب في هذه البلاد؟ » فقال له المدير: «إنني منهم ثم جمع لديه وجوهاً من خيارهم فأنشد إقبال ما ترجمته :

إلى اليوم تلك ظباء الحمى ... بأعينهن المراض الحسان
وألحاظها لم تزل قادرات ... على صيد أسْد الشَّرى كُلَّ آن
وتلك المحاسن طبع الحجاز ... وهذا النسيم عبير يماني
نُحيي الجنانَ وسكانَها ... وإن زال سكانُ تلك الجنانِ[٣٨]

في قرطبة وقف إقبال أمام جامعها العظيم وقفةَ خاشعٍ أمامَ الإيمان الذي جاء بتلك الجماعة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبدالرحمن الداخل مؤسس هذا المسجد العظيم، رأى إقبال أن هذا المسجد العظيم صورةٌ للمسلم في هذه الأرض، تجلت فيه أخلاق المسلم وصفاته: علو الهمة واتساع في القلب، وبساطة في المظهر، وبراءة في النية، وثبات على الحق وإعلاء للعقيدة والمبدأ وجمع بين الجمال والجلال والأنفة والتواضع[٣٩]

وتذكر إقبال بهذا المسجد أهلَه الذين رفعوه وشادوه، وتذكر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ورسالتَهم التي كانوا يعيشون لها، فيخاطب المسجد قائلاً :

«انظر أيها المسجد - إلى هذا الهندي - الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة، نشأ بين الكفارِ وعباد الأصنام، كيف غمر قلبه الحبُّ والحنان وكيف فاض قلبُه ولسانُه بالصلاة على نبي الرحمة الذي يرجع إليه الفضل في وجودك، كيف ملكه الشوق وكيف سرت في جسمه مشاعرُ التوحيد والإيمان » .

ويُذكّره المسجد بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده وبالأمة الإسلامية العظيمة ويرى إقبال أن المسجد صورة صادقة للمسلم فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال وكلاهما محكم البنيان كثير الفروع والأغصان، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على

(٣٨) محمد حسن الأعظمي والصاوي شعلان، فلسفة إقبال ص ٢٢ .

(٣٩) الندوي ، روائع إقبال .

أعمدة كثيرة تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ويرى شرفاتِه مشرقة بنور ربها ومناراتِه العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ومهبطاً للرحمة الإلهية [٤٠] ومما ترجمه عزام نظماً من أشعار القصيدة المذكورة ما يلي :

على عبدالـلهِ أنـت الـدلـيل   فأنـت كهـذا جليل جميل
بنـاء يروع وكـم مِن سوار   كما ازدحمـت في الحجـاز الـنخـيل
على الشرفـات من الـطور نور   وفـوق المـنـار سنـا جبرائـيل
. . . .
من المـؤمـن السرُّ فيك بدا لي   جهـاد الـنهـار ووجـه الـليالي[٤١]

ويخاطب إقبال المسجد فيقول: أين لنا أولئك الرجال؟! هؤلاء الفرسان العرب، أصحاب الخلق العظيم، أصحاب الصدق واليقين. . . لا تزال الرياح تحمل نغمات اليمن ورنات الحجاز[٤٢] وقد ترجم الزبيري الشاعر اليمني هذه المعاني التي وردت في أشعار إقبال بالأبيات التالية :

«أين فرسـان الـعـرب أين أبـطال الـغـلب
أين أربـاب الـحـجى ، أين أعـلام الأدب
أين أهـل الخلق الـفـذ والـدين الـعـجـب
أين ولّى ذلـك المـجـد أم أين ذهـب ؟!

وينشد الزبيري أيضاً بالعربية ما قاله إقبال بالأردية :

إن أنـسـام الـيمـن لم تزل في جوه   وصـدى أرضِ الحرم مشرق في شدوه[٤٣]

الشام وليبيا في شعر إقبال :

كان موقف إقبال من الغرب واضحاً، وكثيراً ما كان يبدي رأيه الصريح في شيء

(٤٠) الندوي ، روائع إقبال .

(٤١) عزام ، إقبال في مسجد قرطبة ط السفارة الباكستانية بجدة عام ١٩٥٥م .

(٤٢) روائع إقبال ص ١٢٧ .

(٤٣) عمر بهاء الدين الأميري ، إقبال والزبيري ص ١١ .

من السخرية اللاذعة عندما يجد أن الأمر يستوجب ذلك، وقد سأله بعض زملائه في جامعة كمبردج: لم يُبعث الأنبياء ومؤسسو الأديان في آسيا دون أوروبا؟ فأجابه إقبال: لأن العالم مقسم بين عبّاد الله وعبّاد الشيطان، ولما كانت آسيا من نصيب عباد الله كانت أوروبا من نصيب عباد الشيطان. فقال قائل منهم: قد عرفنا رُسُلَ الله فأين رسلُ الشيطان؟ فأجابه من فوره: إنهم زعماء سياسة الخداع والمكر في اوروبا»[٤٤] .

وفي معرض المفارقة بين الشرق والغرب وما بينهما من صلات قديمة يلمح إقبال إلى قضية سوريا الجريحة آنذاك فيقول: «الشام بالأمس أهدت المسيح ابن مريم إلى الغرب فما بال الغرب اليوم يبعث إليهم بهدايا من النساء والخلاعة والموبقات» .

أهدت الشام إلى الغرب نبياً ... هو عف ومواس وصبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا ... من قمار ونساء وخمور[٤٥]

ويكشف إقبال القناع عن تضليل الغرب وخداعه، ويفضح مدنيته التي ترتكز على النفاق وتحيا على الرياء والكذب وذلك عندما أنشيء مسجد باريس، ودعي أثناء زيارته لفرنسا ليزور المسجد، فرفض ذلك، ولم يتأثر إقبال بزخارف مسجد باريس لأنه عرف أنه شبكة من شباك الاستعمار لاقتناص المسلمين السذج، فيقول تحت عنوان «بيرس كي مسجد» يعني مسجد باريس:

يا نظري لا يَخدعنّك فنُّه ... للزور هذا الحرمُ المغرب
قد أخفت الأفرنج روح موثن ... في صورة من حرم تَكْذِب
إن الذي شيد هذا مؤثناً ... دمشق من عدوانه تخرَّبِ[٤٦]

---

(٤٤) فلسفة إقبال ص ١٩ .

(٤٥) الترجمة للدكتور عبدالوهاب عزام .

(٤٦) يقول إقبال تحت عنوان بيرس كي مسجد

مري نكَاه كمال هنر كو كيا ديكهـ ... كه حق سـ يه حرم مغربي هـ بيكانه
حرم نهين هـ فرنكي كرشمه بازون نـ ... تن حرم مين جهبا دي هـ روح بتخانه
يه بتكده انهين غارتكرون كي هـ تعمير ... دمشق هاته سجن كـ هوا هـ ويرانه !

والترجمة العربية المثبتة للدكتور عزام في ضرب كليم.

وقد يتساءل البعض كيف عاش إقبال في أوروبا وهو يصورها بهذا الشكل، والجواب عند إقبال فهو يذكر تمرده على العلوم الغربية وتفلته من شباكها واحتفاظه بعقيدته يقول :

« كنت كطائر يقع على شبكة فيقرضها ويأخذ الحَب ويطير بسلام »

ويقول أيضاً :

«يعلم الله أني دخلت في أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها من غير أن أرزأ في عقيدتي وخُلُقي وصلتي بالله، وقد جلست في نارها بشجاعة، وخرجت منها بسلام كما كان شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع نار نمرود»[٤٧] .

ومن الشام إلى ليبيا . . .

ومن ليبيا يأتي الحدث الذي أجري على لسان إقبال مرثية تعد من روائع الشعر الأردي الحديث وهي كما يقولون بالتعبير الأردي «تفتت الكبد» . . . مرثية كتبها إقبال تخليداً لذكرى فاطمة بنت عبدالله التي استشهدت وهي تسقي المجاهدين في حرب طرابلس، وكانت قصة استشهاد الفتاة الشجاعة قد نشرت في مجلة الهلال الأردية في الثاني عشر من نوفمبر عام ١٩١٢م آخر عام ١٣٣٠ هجرية التي كان يديرها أبو الكلام آزاد ويصدرها من كلكتا ، في تلك الفترة كان إقبال يسكب الدمع على ما أصاب الأمة المسلمة، وهذا ما جعله يخلد ذكرى فاطمة بنت عبدالله الليبية طالما ظل المسلمون يقرأون أشعاره بالأردية أو يقرأون ترجمتها باللغات الأخرى .

وكانت إيطاليا قد هجمت على طرابلس في رمضان ١٣٢٩هـ/سبتمبر ١٩١١م ولم تكن قوات الدولة العثمانية قادرة على التصدي لهجومها بينما أوقف الإنجليز مصر عن التدخل، ولهذا قام الشيخ السنوسي ـ رحمه الله ـ وكان القائد الديني والسياسي لعرب طرابلس بإعلان الجهاد في سبيل الله، وخرج المسلمون يدافعون عن بلدهم دون بنادق أو بارود، وبدون إمدادات أو معونات، لم يكن للأحياء ملابس يلبسونها، ولا للأموات ما يتكفنون به . . . وخرجت فاطمة تسقي الجرحى . . . لم تكن قد تجاوزت

(٤٧) إقبال العرب على دراسات إقبال من مقال للندوي بعنوان إقبال في مدينة الرسول ص ٦٨ وما بعدها .

الرابعة عشرة من عمرها إلا أنها كانت تحمل في صدرها قلب أسد. . . استشهدت فاطمة ولكن النار أضرمت في قلوب الآلاف من المسلمين فأنارت ذكراها[٤٨].

وضع إقبال عنوان مرثيته هكذا «فاطمة بنت عبدالله الفتاة التي استشهدت وهي تسقي المجاهدين في حرب طرابلس» ولنقرأ بعض أبياتها في الأصل الأردي :

فاطمه! تو آبروئے امتِ مرحوم ہے
ذرّہ ذرّہ تيري مشت خاك كا معصوم ہے
يه سعادت حور صحرائي ترى قسمت مين تهي
غازيان دين كي سقائي ترى قسمت مين تهي
فاطمة! كو شبنم افشان آنكھ تيرے غم مين ہے
نغمه ء عشرت بهي ابنى ناله ء ما تم مين ہے
رقص تيري خاك كتنا نشاط انگيز ہے
ذرّه ذرّه زندگي كے سوز سے لبريز ہے[٤٩]

إقبال يخاطب فاطمة بأبيات تجسد المعنى وتذيب القلب حزناً :

« يا فاطمة! لا شك في أنك مجدُ الأمة المرحومة
كل ذرّة في جسمك بريئة طاهرة
كانت هذه السعادة في أن يكون نصيبك
يا حورية الصحراء
أن تسقي جند الإسلام
جاهدت في سبيل الله بدون سيف أو درع
آه . . ما أشد شوقك إلى الإستشهاد
حقاً لو ولدت رغبة الشهادة في قلب انسان
فإنه يكون شجاعاً لدرجة أنه يخرج للجهاد كما خرجت
يا فاطمة ! مع أن عيوني تفيض بالدمع حزناً عليك

(٤٨) يوسف سليم جشتي ، شرح بانك درا ص ٤٠٧ .
(٤٩) آنظر كليات إقبال الأردية ص ٢١٤ .

إلا أن نُواحي ممزوج بلحن الفرح ممزوج بالطرب
كم يبعث فينا الطرب رقصُ ترابك
فكأن كل ذرة من ذراته مُفعمة بحرقة الحياة

ثم يقول إقبال :
«ففي صمت قبرك ترتفع الثورة الصاخبة تعلن :
عن أمة جديدة تولد في حضنها»[٥٠]

وهكذا يريد إقبال لروح فاطمة أن تهدأ في قبرها فهو وإن كان يسكب الدمع في ذكراها إلا أن حزنه يتضمن جانباً من السرور لأنها أعادت إليه ذكرى الأمة المسلمة في الأيام السالفة، ومن شهادتها عرف أن أمته ستنهض من جديد، وأن جماعة من المسلمين ستظهر ترفع اسم الإسلام عالياً في الدنيا يقول إقبال :

الآن أرى المسلمين يستيقظون من نوم الغفلة
ويظهر من بين الأمة رجال يعيدون لنا
ذكرى السلف الصالح
ويدركون في نفس الوقت مقتضياتِ العصر الحاضر
وأسلوبهم مثل أسلوبك ـ يا فاطمة ـ التضحية والفداء[٥١] .

إقبـال ومصـــر

كما ذكـرنـا زار إقبـال مصر وألقى محاضرة في جمعية الشبـان المسلمـين، وتجول بالقاهرة، وزار الآثار القديمة، وكتب في أشعاره عن أبي الهول وعن الأهرامات ولكن بأسلوبـه الخـاص، وكـان إقبال على دراية كاملة بكل ما يدور في مصر من أفكار وحركات دينية كانت أو سياسية، فقد كان الارتباط بين خطوط الفكر الإسلامي في مصر وبين مثيلها في شبه القارة الهندية واضحاً جلياً .

(٥٠) سمير عبدالحميد، إقبال وأرمغان حجاز المرثية في أدب إقبال .
(٥١) سليم جشتي ، شرح بانك درا ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

كانت مصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين تموج بقضايا كثيرة تبحث عن حلول لدى المفكرين القادة، وتتلخص في الوطنية المصرية والخـلافة الإسلامية والقومية العربية، بالإضافة إلى الصراع بين القديم والجديد، وباختصار غرق أهل مصر في متاهات عبّر عنها إقبال بقوله :

« غرق أهل مصر في دوامة أمواج النيل »

وهو هنا يشير إلى اتجاه المصريين لفكرة «المصرية» أو الانسلاخ عن العالم العربي والعالم الإسلامي والاتجاه نحو الغرب ويقول إقبال موضحاً رأيه :

« بالأمس رأيت حلماً غيرَ بَيِّنٍ . . .
رأيت مسلمي مصر والهند
وقد غرقوا في دوامة الوطنية .
يا زائري ديار الإفرنج !
إنني أصرخ فيكم :
إنهم ليسوا بقادتنا فمن الخير أن تبتعدوا عنهم »(٥٢) .

لم يُعجب إقبال بمسألة الوطنية حين زار مصر، ولم يعجبه الزعماء الذين قاموا في ذلك الحين بالدعوة إلى فكرة الوطنية، وتناسوا الدعوة إلى جمع شمل المسلمين بدلاً من تفتيتهم تحت فكرة الوطنية، وظل إقبال يوالي نصائحه للمسلمين بألا يقعوا في شراك سحر الوطنية وأضوائها البراقة يقول إقبال :

« أيها المسلم ما زلت في هذه الحياة على معبر
فاترك وانزع عنك قيد المكان . .
آترك مصر وآترك الحجاز وآترك أيضاً الشام »

وعند تمثال أبي الهول نظم إقبال بعض الأبيات وجعل عنوانها إلى أهل مصر « أهل مصر سـ »

---

(٥٢) ديوان بانك درا .

« يا أهل مصر :
إن أبا الهول نفسَه هو الذي علمني هذه الحكمة . . .
أبو الهول صاحب الأسرار القديمة
علمني بأن هناك قوة يتغير بها تقدير الأمم
قوة لا يضارعها عقل أي حكيم
قوة لها طبع يتغير مع كل زمان
فتظهر أحياناً في عصا الكليم
وأحياناً في سيف الرسول الأمين»(٥٣) .

والحقيقة أن إقبالاً يود أن يوضح للمسلمين أن أي نظام للحياة لا يمكن أن يعتمد على العقل فقط بل تلزمه القوة أيضاً، فإن لم توجد القوة فإن قيمة دستور العمل أو المعاهدة أو القانون لا تساوي إلا المداد الذي كتب به الدستور أو القانون، وأبو الهول علمه هذه الحكمة فالشيء الذي يغير مقاديرَ الأمم ومصائرَها هو شيء ثمين هو القوة ولا شيء غير القوة، القوة التي لا يمكن أن يساويها عقل أي حكيم وكما قال أحد شعراء الأردية :

«بيكار هـ سب فلسفة بندوق كـ آكـ »
ومعنى هذا الشطر هو: «الفلسفة كلها بلا فائدة أمام طلقات البنادق» .

ومع أن شكلَ القوة ونوعيتَها يتغير دائماً، إلا أن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن القوة كانت ضرورة لكل زمان، وستبقى هكذا في الأزمان القادمة، وهذه القوة تظهر أحياناً في شكل عصا موسى، وأحياناً في سيف المصطفى صلى الله عليه وسلم . والمؤمن لا بد أن تكون لديه القوة ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإلا فلن يكون مؤمناً بل سيكون راهباً، ولا رهبانية في الإسلام .

وفي مصر أيضاً كتب إقبال عن أهرام مصر ليشرح نظريته في الفن، كتب بأسلوبه الخاص ليقول إن الفنان يمكن أن يصل بفنه إلى مرحلة الكمال حين يحرر ذاتيته من

(٥٣) ديوان ضرب كليم .

تقليد الطبيعة، وبألفاظ أخرى يمكن أن توجد صفة الخلود والدوام في الفن حين تظهـر في هذا الفن الأصالة والجدة ORIGINALITY يقول إقبال تحت عنوان أهرام مصر :

في فضاء هذه الصحراء الصامتة المحرقة للكبد
لم تبن الطبيعة شيئاً إلا تلالاً من الرمال
يسودها الصمت والسكون
رمالٌ هي اليوم هنا وغداً قد تكون هناك
إلا أن الإنسان الذي بنى الأهرامات
جعلها شيئاً عظيماً
لا يزال قائماً لآلاف السنوات
وهكذا فواجب الفنان أن يحرر فنه من عبودية الطبيعة
(عليه أن يعطي الثبات والخلود لأعماله بجهوده الذاتية)
ولتتذكر أيها الفنان دائماً هذا الأمر
أنت لست صيداً ولكنك الصياد
فعليك أن توجد ـ بجهدك الفكري ـ صفة الدوام[٥٤] .

حين وصل إقبال إلى مصر ورأى حالها وقد مالت بعض الآراء إلى إحياء الخلافة بل اتجهت إلى تنصيب الملك خليفـة، رأى أن يوجـه خطاباً مهذباً إلى الملك وإلى أصحاب هذا الرأي، يوضح لهم فيه أن فكرة الخلافة لا تعني الملك والتاج، فالخلافة أسلوب عمل إسلامي ينبع من داخل القلوب المؤمنة بربها الخاشعة لخالقها ويتساءل إقبـال: (أنّى يأتي الفاروق « عمر » مرة أخرى ليفهم فاروق « ملك مصر » معنى الخلافة)، فما كان في ذهن إقبال هو خلافة أبي بكر وعمر وتساؤل مستمر هل يمكن أن يعود هذا الزمان الطاهر في عصرنا هذا، ولما كانت فلسفة إقبال تقوم على الحركة فهو يتمنى أن تهب رياح الصحراء من الجزيرة العربية حيث نزلت الرسالة على سيد المـرسلين وأن تثير أمواج نيل مصر وأن تقوم هذه الرياح المحملة بعطر النبوة ونقاء

(٥٤) نفسه ص ٥٧٨ في كليات إقبال الأردية والترجمة بتصرف بسيط .

الرسالة المحمدية بإبلاغ رسالة الفاروق عمر رضي الله عنه إلى فاروق مصر يقول إقبال :

« هبي يا رياح الصحراء من جزيرة العرب
وأثيري موج نيل المصريين
وبلغي الفاروق رسالة الفاروق
بأن يمزج الفقر والملك في نفسه
فالخلافة هي أن يكون الفقر قريناً للتاج والملك
فما أحسن هذه الثروة التي لا تفنى
يا صاحب الحظ الفتي
لا يفلت من يدك هذا الفقر
فبدونه تموت المملكة بسرعة
إن من يعرف أسرار اليقين
يجعل النظرتين نظرة واحدة
وقد مزجتا بنور قنديلين
فلا تفكر في الفصل بين الدين والملك »(٥٥)

ونلمح من خلال هذه الأشعار ما تنبأ به إقبال للملك من زوال ملكه، وقد تحقق ما تنبأ به ، لأن التجافي عن تعاليم الإسلام كان علة العلل في سقوط مُلْكِ مصرَ عن فاروق فهو في نصحه له يكرر على سمعه ضرورة أن يستجيب لداعي العقل والقلب، ويوصيه بأن يكون ذلك المؤمن الذي تبلغ به روحانية الدين ذروتها ويريد أن يرشده إلى قصد السبيل على أن يطرح القشور ويهتم باللباب، ففي نظره أن الحصيف هو الآخذ بالجوهر لا بالمظهر، فإقبال الشاعر المسلم يبدي رأيه في سياسة الملك على أساس من مبادىء الإسلام ومثله، وهي مبادىء ومثل أخذ بها حكامه الأولون فتأتّى لهم أن يقيموا أعظم دولة عرفها التاريخ .

(٥٥) سمير عبدالحميد، إقبال وارمغان حجاز ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

إقبال وفلسطين

قبل أن يسافر إقبال إلى القدس لحضور المؤتمر الإسلامي بسنتين ترأس اجتماعاً ضخماً في لاهور ٣ ربيع الآخر ١٣٤٨هـ/٧ سبتمبر ١٩٢٩م للاحتجاج على رعاية الحكومة الإنجليزية لليهود في فلسطين وجاء في خطابه ما يلي :

« إن المسلمين يُستشهدون في فلسطين ، وتُقتل نساؤهم وأطفالهم، وتُسفك دماؤهم في القدس التي فيها المسجد الأقصى الذي أُسري إليه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، والإسراء حقيقة دينية ، وكان هيكل سليمان قد انهدم قبل دخول المسلمين القدس بقرون، ولم يكن اليهود على معرفة بمكان ذلك الهيكل حتى اكتشفه المسلمون، وبنوا في ذلك الموضع مسجداً كبيراً يسمى المسجد الأقصى. . . لقد كانت الدول كلها تستذل اليهود وتضطهدهم ، ولم يكونوا يجدون ملجأ سوى الدول الإسلامية، ولم يكتف المسلمون بإيواء اليهود بل أعطوهم مراتب عالية، ووضعوهم في مناصب ممتازة، وظل الأتراك يعاملونهم ببالغ تسامح وإكرام ، وسمحوا لهم بالبكاء بجانب جدار البراق في أوقات معينة، لذلك اشتهر جدار البراق بحائط المبكى في اصطلاح اليهود، وموضع المسجد الأقصى بكامله وقف لله تعالى في الشريعة الإسلامية ، ولا يجوز امتلاكه لأحد إطلاقاً، فدعوى اليهود بامتلاك جزء من المسجد الأقصى باطلة وغير شرعية من الناحية القانونية والتاريخية »[٥٦] .

ثم سافر إقبال إلى القدس، واشترك في المؤتمر الإسلامي العالمي الذي عقد في رجب ١٣٥٠هـ/ديسمبر ١٩٣١م ، وألقى خطاباً في الحضور جاء فيه :

« إنني أعتقد أن مستقبل الإسلام مرتبط بمستقبل العرب ، ومستقبل العرب متوقف على اتحادهم ، فيفوز المسلمون إذا اتحد العرب ، ويجب علينا جميعاً أن نصرف كُلَّ ما لدينا في انجاز هذا الهدف والله سبحانه وتعالى سوف يمنحنا الفوز والنجاح »[٥٧] .

(٥٦) كفتار إقبال ص ٩٣ نقلاً عن : إقبال والحضارة الغربية ص ٢٤٥ .

(٥٧) محمد حمزة فاروقي ، سفر نامه إقبال ص ١٥٦ .

على أرض فلسطين تحركت شاعرية إقبال، فنظم أبياتاً ملؤها الحرقة والحرارة يقول:

« ترك سحاب الليل في السماء نتفاً حمراء وبنفسجية
فارتدى جبل «اضـم» حُللاً ملونة
وهب النسيم عليلاً بليلاً
وهفت أوراق النخيل مصقولة مغسولة بأمطار الليل
وأصبحت رمال كاظمة في نعومتها وصفائها حريراً »(٥٨)

والأبيات السابقة من قصيدة ذوق وشوق التي اختتمها بأشعار جاء فيها:
« إن المعلومات لا تعطي الثمرات، فليس كل من درس علم النخيل تمتع بالرطب »(٥٩)

أدرك إقبال أن الصليبية مع الصهيونية تتآمران ضد الإسلام والمسلمين، وأيقن أن الصليب والكنيسة كامنة في قلب كل مستعمر سواء كان ديمقراطياً أو اشتراكياً وكان ذلك قصده حين قال:

« أيها الغافل! لماذا ترجو العطف والحنان من الإفرنجي الغاصب؟
ألا تدري أن قلبَ الصقر لا يرق لطائر يقع بين مخلبيه »(٦٠)

لقد خطط الإستعمار الغربي والصهيونية ـ ولا يزال ـ لإجلاء مسلمي فلسطين عن ديارهم لإسكان اليهود فيها واستيطانهم إياها وكان إقبال يرى أن تلك السياسة الإستعمارية تقصد إبادة المسلمين وتشتيتهم واغتصاب بلادهم، وقد أوضح هذا في خطاب له في اجتماع الرابطة الإسلامية في ربيع الآخر ١٣٥٦هـ/يوليو ١٩٣٧م كما أوضح إقبال أيضاً أنه إذا رأى المستعمر الغربي أن من حق اليهود أن يسكنوا فلسطين لأنهم سكنوها قبلاً، فلماذا لا يُعطى الحقُّ نفسهُ للعرب إذا ما أرادوا أن يسكنوا الأندلس التي سكنوها طويلاً .

(٥٨) روائع إقبال ص ١٣١ وكليات إقبال ٤٠٣ .
(٥٩) نفسه ص ١٣٥ وكليات إقبال ص ٤٠٥ .
(٦٠) إقبال والحضارة الغربية ص ٢٣٦ .

ويقول إقبال في منظومة بعنوان «شام وفلسطين»[٦١] .

« مرحى لحانات الفرنج فقد ملأت بهن زُجَاجُها حلبْ
إن في فلسطين اليهود رجت فليأخذن أسبانيا العربْ
للانكليز مقاصدٌ خفيت ما أن يراد الشهد والرطبْ[٦٢]

حرص إقبال دائماً على البعد عن كل ما يقربه من التشبه باليهود ويحكي نجله الدكتور جاويد إقبال أن أباه كان يستنكر اللباس الإنجليزي وكان ينصحه دائماً بارتداء السروال والشيرواني، ويقول الدكتور جاويد: «ولو ضفرت أختي منيرة شعرها إلى ضفيرتين كان يكره ذلك ويقول: يا بنيتي لا تجدلي شعرك هكذا فإن ذلك أسلوب اليهود »[٦٣] .

عرف إقبال أن اليهود يوجهون أحقادهم ومكائدهم إلى المسلمين بصفة خاصة بينما يملكون الحكم الحقيقي في أوربا ويقول تحت عنوان «اليهود وأوربا» :

« انظروا فمع هذه الرفاهية السائدة في الغرب
والسيطرة والتجارة
إلا أن القلوب قلقة في الصدور المظلمة
فقد أمسى الغرب مظلماً بدخان الآلات والمصانع
ولم يعد ذلك الوادي الأيمن يصلح ليكون مصدراً للتجلْي*
فالحضارة الغربية قد أوشكت على الانهيار
وهي في عمر الشباب
وبعدها قد يتولى اليهود زمام أمور الكنيسة

وفي ديوان أرمغان حجاز وفي منظومة بعنوان مجلس شوري ابليس أو برلمان ابليس يقول على لسان أحد نواب ابليس :

---

(٦١) أنظر النص في كليات إقبال ص ٦١٨ .

(٦٢) عزام ، ضرب كليم ص ١١١ .

(٦٣) إقبال والحضارة الغربية ص ٢٤٢ .

(*) استعمل إقبال «الوادي الأيمن» لأوربا على سبيل التهكم .

« إن ذلك الساحر اليهودي (يعني كارل ماركس)
الذي هو نسخة أخرى من مزدك الفارسي الاشتراكي
قد كاد أن يفتن العالم بسحره ودهائه »[٦٤]

وفي ديوان ضرب كليم يوجه إقبال حديثه مباشرة إلى عرب فلسطين :

زمانه اب بهي نهين جس كـ سوز سےفارغ
مين جانتا هون وه آتش تر وجود مين هے
ترى دوا نه جنيوا مين هے نه لندن مين
فرنكَ كے رگ جان بنجه يهود مين هے
سنا هے مين نےغلامي سےامتون كي نجات
خودي برورش ولذت نمود مين هے[٦٥]

قال إقبال ما معناه :

«لا يزال الزمان يصلي بنار لم تزل في حشاك دون خمود
لا دواء بلندن أو جنيوا بوريد الفرنج كفُّ اليهودِ
ومن الرق للشعوب نجاةٌ قوة الذاتِ وازدهار الوجود[٦٦]

وعلى أرض فلسطين زار إقبال طلاب دار اليتامى ومثل الطلاب أمامه مسرحية «قصة فتح الأندلس» وفي نهاية المسرحية طالبه الحضور بأن يسمعهم شيئاً من شعره فأنشد الأبيات التالية :

«طارق جو بر كناره ء اندلس سفينه سوخت
كَفتند كارِ تو به نكَاه خرد خطا ست
دوريم از سواد وطن باز جون رسيم؟
تركِ سبب زروئـ شريعت كُجا روا ست

(٦٤) سمير عبدالحميد، إقبال وأرمغان حجاز ـ مجلس شورى ابليس .
(٦٥) النص ص ٦٢٢ في كليات إقبال .
(٦٦) عزام ، ضرب كليم ص ١١٣ .

خنـــديد ودست خويش به شمشـير بُرد وكَفت
هر ملكْ ملكِ ماست كه ملكِ خدائےماست[٦٧]

وقد نظم المعنى الدكتور عزام هكذا :

« طارق أحــرق الـسفــين فقــالــوا ليس هذا من فعــله برشــيد
غربــاء ومــن لنــا برجــوع ذا خطار في الشرع غير سديد
أمســك الـسيف طارق في ابتســام قائــلاً واثــقــاً بعــزم شديد:
ملكُــنــا الــيوم خالــصــاً كُلُّ ملكٍ إنــه ملكُ ربِّــنــا المــعــبــود[٦٨]

عاش إقبال يدافع عن القضـية الفلسطينية وقال:

«إنني لست خائفاً من أعداء الإسلام قدر ما أخاف على المسلمين من أنفسهم . . من الواجب أن يتنبه العرب بأنهم لا يستطيعون الاعتماد على من لا يملك الكفاءة والقدرة للوصول إلى رأي حول قضية فلسطين بحرية فكر واستقلال ضمير، فكل ما يقرره العرب لا بد أن يقرروه معتمدين على أنفسهم بعد دراسة كاملة للمشكلة التي يواجهونها»[٦٩] .

وكتب مرة إلى القائد الأعظم محمد علي جناح :

«إن لمشكلة فلسطين أثراً كبيراً في نفوس المسلمين وإنني شخصياً لمستعد أن أذهب إلى السجن لأمر له تأثير على الإسلام، فإن وجود مركز غربي على بوابة الشرق خطير للغاية»[٧٠] .

إقبـال والجـزيرة العربيـة :

أول ما نناقشه هنا فيما يتعلق بعلاقة إقبال بالجزيرة العربية هو موقفه من الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ، فقد أعجب إقبال كثيراً بشخصية

(٦٧) ديوان بيام مشرق .
(٦٨) عزام ، رسالة المشرق ص ٦٤ .
(٦٩) Thoughts And Reflections of Iqbal P. 371.
(٧٠) إقبال سـب كـ ليـ ص ١٧٤ نقلاً عن إقبال والحضارة الغربية ص ٢٤٨ .

الشيخ محمد بن عبدالوهاب وجهوده الذاتية التي لم تعرف الكلل في سبيل الإصلاح الديني وتطهير العبادة من شوائب البدع والخرافات والوثنيات التي دخلت عليه، وقد عبر إقبال عن إعجابه بالشيخ وبدعوته عندما وصفه بقوله :

« المصلح المتطهر العظيم محمد بن عبدالوهاب »[٧١] .

جهر إقبال برأيه هذا في وقت كانت دعوة الشيخ تُواجَه بضراوة في الهند، ويعتقل أحياناً كل من يصرح بأنه من مؤيدي الدعوة[٧٢] . وإقبال تعرف على دعوة الشيخ عن طريق ما كان يُكتب في الهند بالإضافة إلى ما كتبه أستاذه توماس أرنولد الذي تتبع تأثير حركة الشيخ على البنغال وسومطرة وإفريقيا، وأثبت هذا في كتابه الدعوة إلى الإسلام[٧٣] .

تقوم دعوة الشيخ على التوحيد، والتوحيد في رأي إقبال هو أساس الحياة، والإنسان لا يفوز بمكانته إلا بالتوحيد، والإعتماد على الله دون سواه، ووسع إقبال دائرة الشرك لتشمل عُبّاد الوطن وعُبَّاد البطون، وأشار إلى أن التوحيد مهم للفرد كما هو مهم للأمة، فالفرد يصبح ربانياً، والأمة تصبح جبروتاً، ذلك أن الفرد يؤمن بوحدانية الله ولا يسلم قلبه لغيره فيتخلق بأخلاق الله وإذا تخلق أفراد الأمة بأخلاق الله تفوقت الأمة على أمم العالم جميعاً .

وإقبال قرأ مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وصرح بأنه يُكنُّ له ولتلميذه ابن القيم وغيرهما من العلماء السلفيين تقديراً كبيراً[٧٤] .

ولا أود هنا أن أفصل الحديث بل اختصر فأقول إن في شعر إقبال ما يفيد تأييده لدعوة الشيخ خاصة أن الهجوم على الدعوة في الهند تركز على قضية الأضرحة والقبور،

(٧١) تجديد الفكر الديني في الإسلام ترجمة عباس محمود ص ٢٨ .

(٧٢) مولانا منظور نعماني ، الشيخ محمد بن عبدالوهاب في رأي علماء الهند ترجمة د. سمير عبدالحميد تحت الطبع دار هجر.

(٧٣) انظر ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين للكتاب ط مصر ١٩٤٧م.

(٧٤) بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب جـ٢ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ طبع دار الثقافة بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية

وهناك فِرَقٌ في الهند كانت ـ ولا تزال ـ تقدس القبور والموتى، ويهاجم إقبال علانية المشايخ القائمين على الأضرحة وينقد استغلالهم للناس السذج عن طريق إقامة الموالد ووضع صناديق النذور: يقول في ديوان بال جبريل:

«إنهم لو وجدوا حصير الزهراء ودلق اويس القرني وغطاء أبي ذر الغفاري لأكلوا السحت من أثمانها»[٧٥].

وإقبال يتحسر على حالة الشيوخ فكل شيخ في دائرته قد زين متجره بأسماء عظماء الصحابة والتابعين، أما دواخِلهُم فقد فرغت من زهد وورع أبي ذر الغفاري ومن عشق ومحبة أويس القرني وعفة وطهارة فاطمة الزهراء، وما يفعله هؤلاء الشيوخ هو أنهم يبيعون أسماء هؤلاء الأطهار، كما أنهم ابتلوا خلق الله بمرض الفرقة والخصام.

أما طواف الأضرحة الذي راج بين بعض مسلمي الهند مخالفة للشرع فقد رفضه إقبال تماماً، لأنه يتنافى مع شرع الله، وما أروع الشاعر حين قال في قصيدة بعنوان فاطمة الزهراء:

نسب المسيح بنى لمريم سيرة — بقيت على طول المدى ذكراها
والمجد يشرق من ثلاث مطالع — في مهد فاطمة فما أعلاها
هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟ — من ذا يداني في الفخار أباها

إلى أن يقول:

فمها يرتل آي ربك بينما — يدها تدير على الشعير رحاها
بلّت وسادتَها لآلئُ دمعها — من طول خشيتها ومن تقواها

ثم يعلن إقبال صراحة:

لولا وقوفي عند أمر المصطفى — وحدود شرعته ونحن فداها
لمضيت للتطواف حول ضريحها — وغمرت بالقبلات طيب ثراها[٧٦]

(٧٥) يهي شيخ حرم هـ جو جرا كر بيج كهاتاهـ — كليم بو ذر ودلق أويس وجادر زهرا!
(٧٦) الأعظمي وشعلان، فلسفة إقبال ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

فإقبال يعلن صراحة في البيتين الأخيرين عن عقيدته الصحيحة وعن سلفيته وعن اتباعه لسنة النبي وللشرع ومحافظته عليه مهما كان الأمر.

مكانة الجزيرة العربية وأهلها في قلب إقبال :

ملكت الجزيرة العربية على إقبال قلبه وعقله ووجدانه وعواطفه، ولم لا ؟ وفيها الحرمان الشريفان ، ولم لا ؟ وهو يتجه إلى الكعبة في يومه خمس مرات على الأقل، ولم لا ؟ وعلى أرضها كانت بعثة نبي الرحمة، ومنها انطلق المجاهدون ينشرون النور في كل مكان، يضيئون ظلمات الجهل بأنوار الإيمان، ومن هنا جاءت أشعار إقبال مليئة بالحديث عن كل مكان في الجزيرة العربية، وجاءت صوره الشعرية وتشبيهاته مأخوذة من معالم الجزيرة العربية، وها هو إقبال يتخيل نفسه يمضي عبر الجزيرة العربية في رحلة إلى مكة المكرمة ومن مكة إلى المدينة، ونلاحظ هنا الأثر العربي في شعره واضحاً جلياً فهو يذكر الخيمة والرحيل والمحمل، ويركب ناقته ويرجوها أن تتهدى في سيرها فالراكب مجروح ومريض وعجوز، ولكن الناقة كما قال «سارت تخطو كالسكران حتى أنك تظن أن رمال الصحراء أضحت تحت قدميها حريراً» .

ويتحدث إقبال عن الصحراء وجمالها حيث تمضي القوافل، وتتلى الصلوات وتساق المحامل، وهو رغم جهله بالنغمات العربية إلا أنه صار شريكاً مع نغمات ناقته التي ترافقه، والشاعر لا يريد أن ينهي رحلته بسرعة فهي متعة له وإن طالت ويقول :

« اِختر أيها الحادي الطريق الطويل واجعل حرقة فراقي أشد حرارة »[٧٧] .

وفي ديوان ارمغان حجاز «هدية الحجاز» يوجه إقبال حديثه إلى أهل الجزيرة العربية في عدة رباعيات بالفارسية تحت عنوان: «يا ابن الصحراء» فيقول :

« حين هبط النور على الصحراء في الأسحار
غرد طائر على غصن النخيل
اِقلع خيمتك وارحل يا ابن الصحراء
فلا حياة دون تذوق الرحيل

(٧٧) سمير عبدالحميد ، إقبال وأرمغان حجاز ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

جعل الله العرب أدلاء للقوافل
وامتحنهم بفقرهـم
لو أن فقر الفقراء ذو حمية
فمن الممكن أن يقلب الدنيا رأساً على عقب

إلى أن يقـول :

الجسد والروح كلاهما محكم بهواء البادية
وسط الصحراء المترامية
إن ظهور الأمم
يكون من بين الجبال والأودية »(٧٨)

وإقبال لا يريد لأحد أن يسيء فهم أشعاره هنا فهو لا يقول الشعر ليلهو أو يتسلى، أو يتحدث عن الحسان أو يتغزل فيهن، بل هو يبلغ رسالة سامية، وأفكاراً عالية اقتبسها من آيات القرآن الكريم :

« وقـل للشـاعـر الـعـربي عني ... لياقـوت الـشـفـاة الـبـخس مني
قبـسـت الـنـور بالـقـرآن حتى ... جعـلـت الـليل لي فجـراً يغـني(٧٩)

ولا يزال إقبال يمضي في صحراء الجزيرة العربية فيخاطب أهلها قائلاً :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة
وأنبتت زهرة يانعـة
إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي
وترعرعت ونمت في حجره
وهكذا كان يومُ هذا العالَم المعاصر مديناً لأمسه »(٨٠)

---

(٧٨) نفسه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٧٩) د. مجيب المصري ، إقبال والقرآن ص ١٥١ ط الانجلو المصرية .

(٨٠) الندوي روائع إقبال ص ٢٠٦ .

ظل إقبال يذكر الجزيرة العربية وأهلها في كل مكان ارتحل إليه، ذكرها وهو في مصر، وذكرها وهو في القدس وذكرها وهو في أوربا وذكرها وهو في أفغانستان وذكرها وهو في الهند .

في أسبانيا كتب عن طارق يدعو الله وهو يخوض الجهاد في سبيل الله فقال :

« لقد أكرمت يا رب العرب سكان الصحراء بنعم فريدة
في العلم والإيمان وأذان الفجر . .
كانت الحياة قد فقدت حرارتها منذ قرون طويلة
فوجدتُها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان
إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة
إنهم يرون فيه فتحاً جديداً وعيشاً جديدا
أعد يا رب إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الدينية
التي كانت كامنة في صيحة «لا تذر»
ولتوقظ في الصدور العزائم والهمم .
واجعل نظراتِ هؤلاء المسلمين كالسيف ترهب الكفار »[٨١] .

وفي ديوانه « بـس جـه بايد كرد أي أقوام شرق » يخص أهل الجزيرة بفصل يقول فيه :

« أرضـك الـصحـراء تبقى للأبـد — من يُهْلِك للمـلوك الـصـوتَ مد
في رحـاب الأرض عش قاصٍ ودانٍ — من كلام الله أجـري في لسـان
رمـز «إلا الله»(*) مَنْ قد لقـنوه — ذلـك المـصبـاح أين أوقـدوه[٨٢]

وفي ديوان الأسرار والرموز يوصي إقبال بالرجوع عن ترف العجم ورخاوتهم إلى خشونة العرب وقوتهم وجهادهم :

(٨١) دعاء نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » .

(*) لا إله إلا الله .

(٨٢) د. المصري ، إقبال والقرآن ص ١٧٩ .

« من بفـكـر صالـح في الأدب ارجـعـن يا صاح شطر الـعـرب
وسُليمى الـعـرب يا صاح اعشق أطـلعـن صبـح الحـجـاز المشرق
فاشربـن حر الـصـحـاري يا صديق اشربـن من تمرهـا الـراح الـعـتيق
أسـلمـن رأسـك يومـاً صدرهـا والـغـنـى في حرهـا وصرصرهـا»[٨٣]

وفي أفغـانستـان يتـذكر إقبال أهل الجزيرة العربية ويرى أن عليهم قيادة العالم الإسلامي، ويريد أن يظهر من بينهم خالد أو فاروق آخر :

« إن شمس الأمة الإسلامية قد غربت وتوارت بالحجاب
فالعربي فقد رشده وضل طريقه في الصحراء
فذهبت روح لا إله إلا الله عن قلبه
. . . .
فلا يوجد خالد ولا الفاروق ولا صلاح الدين »[٨٤]

إلا أن إقبـالاً لا يفقـد الأمل ويرى أن الصحراء ستنجب بلا شك أسداً يقود المسلمين، يقول مخاطباً أوربا :

« لقد سمعت من أصحاب المعرفة والكرامة أن ذلك الأسد الذي قلب حكم الروم وقضى على حضارتها في السابق عقب خروجه من الصحراء، سوف يصحو من نومه من جديد » .

ولما كان إقبال يضع أمله في أهل الجزيرة العربية فهو يخاطبهم ذاكراً فضلهم أحياناً ومعاتباً أحياناً أخرى ومعتذراً لهم في النهاية :

« أيها العرب قد مَنَّ الله عليكم إذ جعلكم مثل السيف البتّار
أو أحـدَّ منـه . .
وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصحراء فسخر لكم الله المقادير
وهنالك دوّت تكبيراتكم وصلواتكم

(٨٣) عزام ، الأسرار والرموز ص ١٨ .

(٨٤) من ديوان بيام مشرق ص ١٧ ـ ١٨ .

وزمزمت جلبةُ حروبكم وغزواتكم
فارتج بها ما بين الشرق والغرب
فما أحسن تلك المغامرات وما أجمل تلك الغزوات
أسـفاً على هذا الخمود والجمود أيها العرب
ألا ترون كيف تقدمت الأمم الأخرى وسبقت
أما أنتم فما قدرتم قدر هذه الصحراء التي نشأتم فيها
وهذه الحرية التي ورثتموها
كنتم أمة واحدة أمة الإسلام فصرتم اليوم أمماً
وكنتم حزباً واحداً حزب الله فأصبحتم أحزاباً
لقد فرقتم جمعكم ومزقتم شملكم وانقسمتم على أنفسكم

. . . .

إن الله رزقكم البصيرة النافذة
ولا تزال فيكم الشرارة كامنة
فقوموا أيها العرب
وأعيدوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى

. . . .

يا رجل البادية ، ويا سيد الصحراء
عُد إلى قوتك وإلى عزتك
اِمتلك ناصية الأيام وخذ عنان التاريخ
وَقُدْ قافلة البشرية إلى الغاية المثلى

. . . .

معذرة يا عظماء العرب !
لقد أراد هذا الهندي أن يخاطبكم ويقول لكم كلمة صريحة
فلا تقولوا أيها الكرام : هندي !
ونصيحة للعرب مني :
أنتم يا معشر العرب أسبق الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدين

وأنه لا يتم الإتصال بمحمد إلا بالانقطاع عن أبي لهب
وأنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت »[٨٥]

وقد نظم الأعظمي والصاوي شعلان بعض أبيات القصيدة السابقة نذكر منها :

وي كأن لم تُشرقوا في الكائنات بهُدى الإيمان والنهج الرشيد
ونسيتم في ظَلام الحادثات قِيمة الصحراء في العيش الرغيد
كل شعب قام يبني نهضة وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة لهف نفسي كيف صرتم أمما
فكروا في عصركم واستبقوا طالما كنتم جمالًا للعُصُر
واملأوا الصحراء عزماً واخلقوا مرة أخرى بها روح عمر»[٨٦]

ولم ينس إقبال نجد وأهل نجدَ ففي أشعار نظمها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

مهجةُ المسلم مثوى المصطفى عزة المسلم ذكرى المصطفى
خلوات في حراء خلقا أمةً منها وحكماً مشرقا
كم ليال قد قضاها ساهداً فحبا الأمة ملكاً خالدا
عشقه في القلب نور أسفرا للثريا يرتقي منه الثرى
تُرْب نجد منه قد خف وضاء طار وجدا مصعدا نحو السماء[٨٧]

ويرسم إقبال صورة جميلة لوادي نجد إلا أنه حزين فلم يعد يسمع أصوات القوافل الراحلة، ولم يعد هناك قيس الذي يُجن بمنظر المَحمل (الذي يحمل ليلاه) والشعر الأردي من أجمل ما نظم إقبال :

وادي نجد مين وه شور سلاسل نه رها
قيس ديوانه ء نظاره ء محمل نه رها

(٨٥) الندوي ، روائع إقبال ص ١٠٩ .
(٨٦) الأعظمي وشعلان ، فلسفة إقبال ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .
(٨٧) عزام ، الأسرار والرموز ص ١٩ .

حوصــلے وه نه رهےهم نه رهےدل نه رهــا
كَهر يه اجرا هےكه تو رونق محفل نه رها[٨٨]

يقول إقبال ما ترجمته :

«مــا زال قيس والـغــرام كعـهــده — وربــوع ليلى في ربــيع جمالهــا
وهضــاب نجــد في مراعيهــا المهــا — وظبــاؤهــا الخفــرات ملء جبــالهــا
والـعــشــق فياض وأمــةُ أحمــدَ — يتـحـفــز التـاريخ لاسـتـقبـالهـا
لو حاولــت فوق الــســماء مكــانــة — رفّـت على شمس الـضـحى بهلالهـا
ما بالهــا تلقــى الجــدودَ عواثــراً — وتــصــدهــا الأيام عن آمــالهــا[٨٩]

وفي ديوان الأسرار والرموز يتضرع إلى الله أن يرحم المسلمين وأن يخلق فيهم إيمان سلمان وبلال، ويرجو الله أن يمنحهم دواء يخلصهم من عبودية غير الله ويقول: يا إلهي إن سبب مصائب القوم هو انقسام المسلمين إلى فرق متناحرة متحاربة فليس هناك وحدة فكر، ولا وحدة عمل، فجدد يا إلهي في قلوبنا شرع المحبة حيث يمكن أن نعلو في الـدنيا، وأطلعنـا على المفهـوم الحقيقي للتوحيد حتى يمكن أن نواجه البـاطـل، وهـو هنـا يلمـح إلى دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وإلى قيام الملك عبدالعزيز بحماية الدعوة في ذلك الوقت ويصرح إقبال بعدها بما يريد فيقول :

«قـلـت عن أحـبــاب نجــد قصـتي — حدثـتْ عن روضــةِ نجــدٍ نفـحـتي
فأضــاء الحــفــل من لحني إياه — ودرى قومــي أسرار الحــيـاة[٩٠]
(أياه : شعــاع الــشــمس)

إقبال وتوحيد الجزيرة العربية :

كان إلغاء الخلافة الإسلامية من جانب مصطفى كمال صدمة لمسلمي الهند ومنهم إقبال، كما كان للموقف السلبي لرضا شاه بهلوي أثره على المسلمين وظل إقبال يتطلع

(٨٨) النص الأردي من كليات إقبال .

(٨٩) الأعظمي وشعلان ، فلسفة إقبال ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٩٠) عزام ، الأسرار والرموز ص ١٥٠ وما بعدها .

هنا وهناك يتطلع لعله يرى قائداً يقود قافلة المسلمين التي راحت تبتعد عن منزلها يوماً بعد يوم، يقول إقبال :

« شدوت حتى مزقتْ شقائقُ النعمان جيوبَها وجداً، ونسيم الصبح لا يزال يطلب روضاً يُنضر أزهاره، لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي مظهر لروح الشرق، والروح تطلب الآن شخصية أخرى تظهر فيها ».

«جـيب الـشـقـائـق غدا مُزقـا   ونسمـة الصبح روضـاً تطلب الآنـا
ما مصـطفى أو رضـا جلَّى حقيقتهـا   فالـروح في الشرق جسماً تطلب الأنا»[٩١]

شغلت قضية الخلافة العالم الإسلامي، وكانت يومذاك تشغل أمراء العرب وخصوصاً الملك حسين الذي سعى ليكون خليفة المسلمين وأميراً للمؤمنين عن طريق مهادنة الإنجليز[٩٢] وتفجر إقبال بكاءً وهو يلقي قصيدة أمام حشد من المسلمين في اجتماع جمعية حماية الإسلام وبكى معه الحاضرون حين وصل إلى هذا البيت :

« يبيع الهاشمي عزة دين المصطفى صلى الله عليه وسلم
ويتقلب التركي المجاهد في الدم والتراب
آه لقد صار دم المسلم رخيصاً كالماء . . . »

ووجه إقبال نداءه إلى قادة المسلمين آنذاك إلى الملك فؤاد وإلى الأمير فيصل وإلى الملك عبدالعزيز قائلاً :

يا فؤاد ! يا فيصل ! يا ابن سعود !
إلى متى تظلون هكذا متفرقين
إلى متى تغفلون عن مصلحة الأمة الإسلامية
حان الوقت لتتحدوا لرفعة شأن الإسلام
ليت عبداً من عباد الله يأتي

(٩١) عزام، الأسرار والرموز .

(٩٢) أمين الريحاني ، نجد وملحقاتها وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ الطبعة الرابعة ١٩٧٠م مؤسسة الريحاني .

فيظهر ولولة الجهاد في قلوب الأمة »[٩٣]

لم يكن إقبال ليرضى بتدخل الإنجليز في الحجاز بأي شكل من الأشكال، حتى ولو كان بتأسيس عمل خيري كبناء مستشفى مثلاً ، وقد خطط الإنجليز، قبل دخول الملك عبدالعزيز الحجاز أو قيام المملكة العربية السعودية، لإقامة مستشفى يستغلون المسلمين عن طريقه في بث دعاياتهم، فأعلنت الحكومة البريطانية عن جمع تبرعات من مسلمي الهند لتأسيس مستشفى مجانية لخدمة الحجاج في أرض الحجاز وبخاصة في جدة ، فجاء إلى إقبال مولانا ظفر علي خان مدير جريدة زميندار، وقال له إن تقديم هذه الخدمات المجانية من قبل الإنجليز مكيدة لتمهيد الطريق للتدخل في شؤون البلاد المقدسة للمسلمين، وتأثر إقبال حين رأى مولانا ظفر وهو يكاد يبكي ، فقال له إقبال : لا تحزن يا أخي أرسل خادمك في المساء ليأخذ مني بعض الأشعار وانشرها في الجريدة وإن شاء الله لن يتبرع المسلمون وكتب إقبال الأبيات التالية تحت عنوان مستشفى جدة :

يا أساة الحجاز هلا علمتم ... أن برء الحياة أرض الحجاز
إن سر الحياةِ يكمن في الموت ... فيحكي حقيقة في مجاز
فَرَحُ المؤمنين في سكرة الموت ... بقرب المهيمن المتعالي
هو أسمى من عيشة الخضرفي الدنيا طوال الدهور والأجيالِ
لم جئتم للمؤمنين ببرء ... إن إيمانهم يداوي الجريحا
والذي ذاق من يد الوحي كأساً ... ليس يحتاج للدواء مسيحا
كل كون أبلته أيدي الليالي ... أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين ليبني ... منزلاً عالياً وقصراً مشيدا[٩٤]

فإقبال يقول: «لا تنصحني يا أخي بالتبرع لتأسيس مستشفى الحجاز بجدة فإن الحياة كامنة في حجاب الموت كما تكون الحقيقة مستورة في المجاز أحياناً فاللذة التي يجدها العاشق في مرارة الموت لم يجدها الخضر في عمره الطويل، فلا تبشرني ببشرى

(٩٣) مثنوي مسافر .

(٩٤) بانك درا ص ١٩٨ ضمن كليات إقبال الأردية .

الحياة هذه بينما أنا أبحث عن وفاتي في أرض الحجاز فلا تبشرني بالشفاء فإن المستلذ بالألم لا يبالي بالطبيب» .

يلقي إقبال الضوء على الحياة في الحجاز قبل توحيد الجزيرة العربية وقيام المملكة العربية السعودية، ويشير إلى الفوضى والاضطراب وعدم استتباب الأمن وانتشار قطاع الطريق الذين كانوا يغيرون على قوافل الحجيج، ولكنه كشاعر يتخذ من الحدث المفرد موضوعاً يعبر به عن مشاعره ويعرف الناس برسالته الشعرية، وحدث أن توجهت قافلة من قوافل الحجيج من مكة إلى المدينة ففاجأها قطاع الطرق واستولى الرعب على رجال القافلة وسقطوا فريسة للنهب والسلب إلا فتى بخارياً صمد للموت ولكنه نجا وسار وحيداً يناجي أشواقه إلى المدينة :

« هل أتاكم حديث قافلة الحجاج إذ غالها عدو مَريدُ
في طريق المدينة انتهب الركبان والمنزل المراد بعيد
يسأل العابرون عن ساحل الصحراء والجو موحش عربيد
فتلقتهم المخاوف بالمو ت وضلت بهم فياف وبيد
غير ذاك الفتى البخاري لم يبرحه إيمان قلبه الوثاب
يتمنى في الشوق سم المنايا كتمني الظمآن برد الشراب
ملء جنبيه للمدينة شوق يتغنى بنشوة التوحيد
ويرى الخنجر المصوب بالموت إلى صدره هلال العيد
كان خوف الردى يقول له ارجع ويقول الإيمان سر في أمان
ومضى آمناً وحل كريماً وتلقته روضة الرضوان
قد يسير الحجيج في المحمل الشامي في مأمن من الأخطار
ونعيم الشوق يعرفه من ذاق شر الأخطار بين القفار
يخسر العقل نوره حين يأوي قانعاً بالهوان خوف الخسارة
إن في لذة المتاعب ربحاً معنوياً يفوق ربح التجارة[٩٥]

(٩٥) الأعظمي والصاوي شعلان ، فلسفة ص ٧٣ .

وسط الظروف الحالكة للعالم الإسلامي وضع إقبال أمله في ظهور من يقوم بتأمين أمن الحجاز ومنع أي تدخل أجنبي في شؤون المقدسات الإسلامية، ورأى أن من يمكنه أن يؤدي هذا الواجب إنما يكون من قلب هذه الصحراء، فأمة الصحراء أمة خالدة :

أمــة الــصــحــراء يا شعـب الخـلود — من سواكــم حل أغــلال الــورى
أي داع قبــلكــم في ذا الــوجــود — صاح لا كسرى هنــا لا قيصرا
من سواكــم في حديث أو قديم — أطــلع الــقــرآن صبــحــاً للرشــاد
هاتفــاً في مسمــع الكــون العــظيم — ليس غيرُ الــلهِ ربــاً للعــبــاد[٩٦]

ويوجه إقبال أشعاره إلى المغفور له الملك عبدالعزيز بصفته سلطان الحجاز وذلك بعد توحيد الجزيرة العربية :

« أنت سلطان الحجاز وأنا هندي فقير
لكني في مملكة المعاني قدير
الدنيا التي نبتت من بذرة لا إله إلا الله
تراها في أحضان ضميري
هيا نمضي معاً
إلى مدينة الرسول
نرويها بدموعنـا
ونحمل رسالته للعالم أجمع
يا ابن سعود !
مقامك في صحراء مساؤها متجلٍ كالصباح
أعطاك الله ملكاً واسعاً
فابسط خيمتك كيفما تشاء
واعلم أن استجداء الطناب من الآخرين حرام
فنحن المسلمين أحرار من قيد المكان والزمان

(٩٦) نفسه ص ١٠٧ .

(فالدين عند الله الإسلام)
نحن لا نسجد لغير الرحمن
فاجعل ـ أيها السلطان ـ بينك وبين صنم الأفرنج بوناً شاسعاً
فعهده وميثاقه لا يساويان حبة شعير
خذ النظرة من عين الفاروق
أوجد بداخلك فراسة المؤمن
وضع القدم الجريىء في العالم الجديد»[٩٧]

ورغم أن إقبالاً ولد في الهند وعاش بها وتكلم لغتها، إلا أنه يؤكد على أنه كمسلم فهو عربي وأن فكره بأكمله عربي وأن كلامه عربي:

إن الجـواهـر حيرت مرآة هذا القلب فهـو على شفـا بركان
أسمعهمـــو يا رب ما ألهمتني وأعــد إليهم يقــظة الإيمان
وأذقهمُ الخمـر القـديمـة إنها عين اليقـين وكـوثر الرضوان
أنـا أعجمي الدن لكن خمرتي صنع الحجاز وكرمها الفينان
إن كان لي نغمُ الهنود ولحنُهم لكن هـذا الصوتَ من عدنان[٩٨]

(٩٧) سمير عبدالحميد، إقبال وارمغان حجاز ١٢٠٨ ـ ١٢٠٩ .
(٩٨) الأعظمي وشعلان ، فلسفة إقبال ص ٨٨ .

ثبت بأهم مراجع البحث

(*) د. أحمد معوض

العلامة محمد إقبال حياته وآثاره ط هيئة الكتاب بمصر.

(*) أرنولد . توماس

الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ط مصر ١٩٤٧م .

(*) إقبال. محمد إقبال

كليات إقبال الفارسية ط لاهور ١٩٧٨م

كليات إقبال الأردية ط لاهور ١٩٧٨م

تجديد الفكر الديني في الإسلام ترجمة عباس محمود ط القاهرة .

(*) أمين الريحاني

نجد وملحقاتها وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ط مؤسسة الريحاني الطبعة الرابعة عام ١٩٧٠م.

(*) جاويد إقبال

زنده رود ط أولى لاهور ١٩٨٢م .

(*) جامعة البنجاب (مجموعة من الأساتذة)

تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند جلد سوم فارسي ادب ١٩٧٢م

تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند جلد دهم اردو ادب ١٩٧٢م

(*) د. حسين مجيب المصري

إلى السماء ط الانجلو المصرية

إقبال والقرآن ط الانجلو المصرية

هدية الحجاز الانجلو ١٩٧٥م

روضة السر الجديد الانجلو المصرية

(*) خليل الرحمن عبدالرحمن

محمد إقبال وموقفه من الحضارة الغربية ط دار حراء بمكة ١٤٠٨ هجرية .

(*) د. رفيع الدين هاشمي

خطوط إقبال ط لاهور ١٩٧٦م .

(*) د. سمير عبدالحميد إبراهيم

إقبال وديوان ارمغان حجاز ط المكتبة العلمية بلاهور

الأسرار والرموز تحقيق ودراسة ط أولى المكتبة العلمية بلاهور

(*) سيد جراغ حسن

إقبال نامه ط تاج كمبني كراتشي

(*) الصاوي شعلان

مختارات من شعر إقبال إسلام أباد ١٩٧٤م

الأنشودة العربية ط طهران ١٩٦٨م

شكوى وجواب شكوى ط القاهرة ١٩٧٣م .

إيوان إقبال ط القاهرة .

(*) د. ظهور أظهر

إقبال العرب على دراسات إقبال المكتبة العلمية بلاهور

(*) د. عبدالوهاب عزام

محمد إقبال سيرته وفلسفته بيروت ١٩٧٢م

إقبال في مسجد قرطبة جدة ١٩٥٥م

الأسرار والرموز القاهرة ١٩٥٥م

ضرب كليم القاهرة ١٩٥٢م

بيام مشرق ١٩٥١ م

(*) د. عدنان النحوي

الأدب الإسلامي ط الثانية ١٤٠٧ هجرية دار النحوي بالرياض .

(*) عمر بهاء الدين الأميري

إقبال والزبيري ط السفارة الباكستانية بالرياض وجدة .

(*) محمد حسن الأعظمي والصاوي شعلان

فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند وباكستان ط دمشق ١٩٧٥م .

الحياة والموت في فلسفة إقبال ط كراتشي ١٩٧٤م .

(*) محمد حمزة فاروقي

سفر نامه إقبال ط لاهور .

(*) نجـيب الكيـلاني

إقبال الشاعر الثائر ط دمشق مؤسسة الرسالة ١٩٨٠ م .

(*) الندوي ، أبو الحسن

روائع إقبال ط الكويت ١٩٧٨م

(*) يوسف سليم جشتي

شرح بانك درا ط لاهور عشرت ببليكيشن هاوس

شرح ضرب كليم ط لاهور نفسه

شرح أسرار خودي ط لاهور ط ٤ نفسه

شرح رموز بيخودي ط لاهور

شرح جاويد نامه ط لاهور

شرح ارمغان حجاز ط لاهور